والميزان ، فعلى هذا يدخل القياس ضمـــن ما أنزل الله ، لأن الله أنزل الكتاب بالحق ، وأنزل الميزان بالحق أيضاً ،وهذه هى القضية الأولى .

هل تدل الآية وأمثالها على إلغاء رأى الأكثرية ؟

أما القضية الثانية : من قضايا الأحكام الفقهية التى أثيرت فى عصرنا حول قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ ومثلها : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٣ ، يوسف : ٣٨ ، غافر : ٦١] ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) إلى آخر ما جاء من هذا النوع ، فقد استدل بعض الناس بمثل هذه الآيات على أن الأكثرية لا اعتبار لها فى أى أمر من الأمور ، وعلى هذا أنكر من أنكر نظام التصويت بالأغلبيـة فى القضايا المصلحية والقضايا الاجتهادية ، وقال من قال : هذا نظام غربى ، هذا نظام مستورد ، هذا نظام ديمقراطى لا نعرفه ولا يعرفنا ! .

وهكذا بهذه السهولة وهذه البساطة ردّ أولئك المتسرعون هذا النظام الذى يقوم على اعتبار رأى الأغلبية بمثل هذه الآيات ، وهذا استدلال خطأ ، فالمشكل ليس فى الاستدلال بالقرآن والسنة ، فكثير من الناس يستدلون بالقرآن ويستدلون بالحديث ، والحديث الصحيح ، ولكن كثيراً ما يوضع النص فى غير موضعه ، أن يستدل بالنص على ما لم يسق له النص ، وهنا الآفة الكبيرة : وضع النصوص فى غير موضعها ،وأحياناً يكون هذا عن غفلة ، وأحياناً يكون عن عمد وسوء نية ، وهذا ما نسميه (تحريف الكلم عن مواضعه) .

فالآيات التى ذمت أكثرية الذين لا يؤمنون أو لا يشكرون أولا يعلمون ، جاءت فى قضايا العقيدة ، ولكن فى القضايا التى تتعلق بمصالح الناس وتتعلق بالأمور الاجتهادية التى تتعدد فيها وجهات النظر ما بين مؤيد ومعارض ، أنختار هذا رئيساً أم نختار ذاك ؟ زيداً أم عمراً أم بكراً ؟

---

(١) وردت هذه الصيغة اثنتى عشرة مرة منها بعض آية فى ١٨٧ الأعراف ، ٢١ ، ٤٠ ، ٦٨ يوسف ، ٣٨ النحل وغير ذلك .

كيف نفضل إذا تساووا فى المزايا أو كان لكل منهم مزية تقابل مزية الآخر ؟ .

ليس لنا إلا أن نرجح بالأغلبية ، وإذا كانت مصلحة معينة مختلف عليها : أندخل الحرب أم لا ندخلها ؟ أو كانت قضية من القضايا التى يختلف فيها الناس ، فلابد من ترجيح ، وإلا فلن نستطيع أن نرجّح بغير مرجح ، فليست كل القضايا يحكم فيها النص كما يظن بعض الناس ، فهناك أشياء سكت عنها الكتاب والسنة وهى منطقة العفو التى جاءت تسميتها فى الحديث هكذا « ما أحل الله فى كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسى شيئًا » (١) من حديث أبى الدرداء ، وحديث « سكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » الذى رواه الدارقطنى وهو من أحاديث الأربعين النووية أيضًا (٢) .

هذه المنطقة التى سكتت فيها النصوص أو اختلفت فيها النصوص ، وتفاوتت فيها أنظار أهل الاجتهاد ، وفيها قضايا المصالح ، وما أكثرها ، حتى إنك لو رجعت إلى الفنيين فيها لوجدتهم يختلفون ، وقد رأينا الصحابة – رضوان الله عليهم – يختلفون فى بعض القضايا النظرية ، ويختلفون أيضًا فى القضايا العملية كقضية أسرى بدر ، فقد كان منهم من يميل إلى الشدة مثل عمر ، ومنهم من يميل إلى اللين ، مثل أبى بكر، فماذا نصنع فى مثل هذا ؟ .. بعض الناس يقول : نحن مع الحق ، ولكن ما هو الحق فى هذه القضايا ؟ ، ليس هناك شىء اسمه الحق فى القضايا الاجتهادية ، فكل واحد يرى أن رأيه هو الحق وهو الصواب ، وهنا نقول : رأى الاثنين أقرب إلى الصواب من رأى الفرد ،ورأى الثلاثة أقرب إلى الصواب من رأى الاثنين ، وفى الفقه نقول : هذا الرأى أولى

---

(١) حديث مرفوع خرجه البزار فى مسنده والحاكم من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه وقال الحاكم : صحيح الإسناد وقال البزار : إسناده صالح ، وخرجه الطبرانى والدارقطنى والترمذى وابن ماجه من وجوه أخرى .

(٢) رواه الدارقطنى وغيره عن أبى ثعلبة الخشنى (جرثوم بن ناشر) ، وقال النووى : حديث حسن .

وأرجح ؛ لأنه رأى الجمهور إذا لم نجد مرجحاً آخر ، والإمام الغزالى ذهب فى بعض كتبه وهو « الاقتصاد فى الاعتقاد » إلى أن الترجيح فى بعض الأحيان يكون بالكثرة ،وسبدنا عمررضى الله عنه قعّد هذه القاعدة ،وقد رأينا النبى ﷺ حينما استشار أبا بكر وعمر وسأل الأسرى قال : «لو اتفقتما على رأى ما خالفتكما » والمعنى أنهما سيكونان صوتين والنبى ﷺ صوت واحد ، وفى غزوة أحد كان النبى ﷺ وكبار الصحابة يرون عدم الخروج إلى القوم والبقاء فى المدينة يحاربون من داخلها ، ولكن شباب الصحابة – وهو الأكثرية – أبوا إلا أن يخرجوا لقتال الأعداء ، ووجدوا أنه لا يليق بهم أن يظلوا فى المدينة حتى يدخل عليهم هؤلاء ، فنزل الرسول ﷺ على رأيهم ، صحيح أنه لم يَعُد ، لأن الأمر كان واضحاً ، والعَدّ جاء فى العدد المحدود ، وهو ما صنعه سيدنا عمر حينما جعل الشورى فى ستة من كبار الصحابة الذين تجتمع الأمة على واحد منهم إذا وافقوا عليه ، وهؤلاء الستة ممن توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، ومن العشرة المبشرين بالجنة ومن السابقين من المهاجرين ، فوضع عمر نظاماً لهم : إذا اختار خمسة واحداً منهم فيجب أن يخضع الواحد للخمسة ، وإن رفض وتمرد تضرب عنقه ، وإذا أربعة اختاروا وعارض اثنان فيؤخذ باختيار الأربعة ، وإذا اختار ثلاثة واحداً ، وثلاثة واحداً وتساوت الكفتان ، أخذ بمرجح من الخارج وهو عبد الله بن عمر ، فإذا لم يقبلوا عبد الله بن عمر ، فيؤخذ باختيار الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، فاعتبر لصوت عبد الرحمن ابن عوف ميزة ترجيحية كأن صوته بصوتين وهذا ما جعل عبد الرحمن بن عوف ينزع نفسه من هذا الأمر ، ويقول : لا أريده حتى يستطيع أن يجمع الناس على أمر ، وهذه العملية كما نرى عملية تصويت سنها سيدنا عمر ، وقد أمرنا أن نتبع سنة الراشدين « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ »[1] .

فهذا هو النظام الإسلامى وقد جاء فى الحديث « اتباع السواد الأعظم » وهذا الحديث حسّنه بعض العلماء وصححه بعضهم وورد من عدة طرق . وليس

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، وخرجه الإمام أحمد وابن ماجة وغيرهما من طرق أخرى .

هناك دليل للذين قالوا : إن الأكثرية لا معنى لها ولا يقوم عليها أمر ؛ لأن الله ذم الأكثرية ، فهذا فى موضع وهذا فى موضع آخر،ولا تخلط الأمور بعضها ببعض .

والقول بأن هذا النظام مستورد لا يسلم ؛ لأن هذا النظام أساسه إسلامى كما رأينا.على أنه لا مانع من استيراد بعض الأمور النافعة إذا لم يكن الإسلام ينكرها ، وإذا لم تخالف مبدءاً من مبادىء الإسلام لا فى عقيدته ولا فى شريعته ولا فى أخلاقه ولا فى قيمه ، ولا فى غير ذلك ، فلا مانع من الاقتباس ، وقد اقتبس المسلمون الأوائل ما ينفعهم ، إذا كان فيما نقتبس مصلحتنا وليس فيه مخالفة لشريعتنا ، وفى هذه الحالة ندخله ضمن نظامنا الإسلامى فيصبح جزءاً من النظام الإسلامى ، ويفقد جنسيته الأولى ، ويلتحم بالنظام الإسلامى ، ويأخذ فى هذه الحالة الصبغة الإسلامية والروح الإسلامية [1] .

* * *

(١) انظر : فتوى الشيخ القرضاوى عن (الإسلام والديمقراطية) فى الجزء الثانى من كتابه (فتاوى معاصرة) وانظر أيضا كتابه : « من فقه الدولة فى الإسلام » .

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الْشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : ٢] .

عناية القرآن بالكون :

يقول بعض علماء الإسلام ، إن هناك مصحفين . أحدهما ناطق . والآخر صامت . فالناطق هو القرآن ، والصامت هو الكون .

المصحف الأول – القرآن – آياته مقروءة مسموعة ، والمصحف الثانى – الكون – آياته منظورة مشهودة . وكلا المصحفين يدل على الله ويهدى ويشد العقول والقلوب والأبصار والبصائر إلى الله .

القرآن يهدى إلى الله بما اشتمل عليه من آيات معجزة بينت الحق من الباطل وميزت الهدى من الضلال . والكون كذلك يهدى إلى الله بكل ما فيه . أرضه وسمائه ، إنسانه وحيوانه . نباته وجماده . من الذرة الصغيرة الصغيرة إلى المجرة الكبيرة الكبيرة . ويأخذ بالعقول والقلوب لتقف بين يدى الله الكبير المتعال .

كل ما فى هذا الكون دال على الله تبارك وتعالى . كما يقول ذلك القائل :

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملأ الأعلى إليك رسائل
وقد خُطَّ فيها لو تأملَت سطرها ألا كل شىء ما خلا الله باطل

ولهذا نري الآية الأولى حينما تحدثت عن المصحف الناطق . تحدثت الآية الثانية عن المصحف الصامت عن الكون . وبدأت بالسماء أعظم ما فى هذا الكون . ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] ، وخلق السموات أكبر من خلق الأرض لهذا بدأ الله بها .

الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها . الله اسم للذات الإلٰهية . علم

على الذات المقدسة . ذات الخالق الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدّر فهدى . علم على الله فى هذه اللغة العربية .وقد ذكرت في القرآن الكريم كله الفين وستمائة وسبعًاوتسعين مرة . كما فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم على اختلاف تشكيلها بالضم أو بالفتح أو بالكسر . فإذا أضفنا إليها مائة وثلاث عشرة مرة وردت فيها في البسملة . كان المجموع ألفين وثمانمائة وعشر مرات . وهذا لفظ الجلالة صريحًا . فإذا نظرنا إلى أنه يذكر مع صفات أخرى وأفعال . مثل هذه الآية التى معنا ﴿ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ [الرعد : ٢] ، ومثل آية الكرسى : ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحىُّ القَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] حيث ذكر لفظ الجلالة الله مرة واحدة فيها . وذكر ظاهرًا ومستترًا سبع عشرة مرة خلالها أيضًا على نحو. هو الحى القيوم . والهاء فى ، لا تأخذه ، وفى « له » وفى « عنده »، وفى « إلا بإذنه » وهكذا.فإذا ذكر الله تعالى قريبًا من ثلاثة آلاف مرة . فكيف بذكره تعالى بأسمائه الأخرى وأفعاله وبالضمائر المستترة ؟! إنه الشىء الكثير . وذلك أن هذا القرآن إنما نزل أولاً ليصل الناس بحبل الله . ليقيم هذه الصلة بين الإنسان وربه . فليس هناك فجوة ولا جفوة بين الله تعالى وعباده . وهذا من أعاجيب هذا القرآن ، فلا يعرف فضل القرآن إلا من قرأ الكتب الأخرى مثل ما يسمى بالتوراة ، أسفار العهد القديم ، التى لا تكاد تحس بوجود الله تعالى فيها إلا بين الفينة والفينة . فهى مشحونة بالحديث عن بنى إسرائيل . وعن ملك بنى إسرائيل ومجد بنى إسرائيل وأخبار بنى إسرائيل وقبائل بنى إسرائيل وتعداد بنى إسرائيل.أما الله ولقاؤه وحسابه وجزاؤه فشىء بسيط جدًا .

رفع السموات بغير عمد :

إن القرآن حافل بالثناء على الله وبتعظيم الله عز وجل وبتمجيد الله ﴿ اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ . هذا السقف المرفوع . السقف المحفوظ . هذا البناء الربانى ، من فوقنا ، والسماء فى اللغة هى كل ما علاك ،

حتى السقف يمكن أن يكون سماء كما جاء فى سورة الحج ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنَّ أَنْ لَّنَ يَنصُرَهُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج : ١٥] فقوله « بسبب إلى السماء » يعنى بحبل إلى السقف فيخنق نفسه . وهل هذا يريحه وينتهى الأمر؟! .

وتطلق السماء أيضًا على السحاب الذى ينزل الله سبحانه وتعالى منه الماء . وهناك السموات العلى كما جاء فى سورة طه ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾ [طه : ٤] .

وقد ذكرت سموات منكرة خمس مرات . وذكرت السموات معرفة مائة وخمسًا وثمانين مرة (١) . ولكن ما هى السموات ؟ بعض الناس فى عصرنا من المتأولين للقرآن على غير وجهه ممن فتنوا ببعض ما عرفوا من العلم الحديث حاولوا أن يجعلوا السموات السبع تلك الكواكب السيارة المرتبطة بمجموعتنا الشمسية هذه . ومن هؤلاء الشيخ جمال الدين القاسمى فى تفسيره محاسن التأويل . واتجه إلى ذلك أيضًا الشيخ عبد القادر المغربى فى تفسيره جزء تبارك من القرآن . وأنا أعتقد أن السموات السبع شىء أعظم من هذه الكواكب . فقد عرفنا فى عصرنا أن المجموعة الشمسية واحدة من ملايين المجموعات تحتويها المجرة التى نحن جزء منها . وهذه المجرة واحدة من ملايين المجرات الأخرى .

وهذا يدل على أن هذا الكون عظيم لا يعلم سعته إلا الله عز وجل . ونحن نقول حين نرفع من الركوع – كما علمنا رسول الله ﷺ – ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ما شئت من شىء بعد (٢) .

وإذا كان ملك الله عظيمًا . وكانت السموات العلى هى أعظم ما فى هذا

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٣٦٤ وما بعدها وقد وردت السماء هكذا مفردة مائة وعشرين مرة فى القرآن الكريم كله حسب المعجم المفهرس أيضاً .

(٢) الحديث رواه مسلم عن على وابن أبى أوفى وأبى سعيد الخدرى وابن عباس رضى الله عنهم جميعًا كما فى الأذكار للنووى ص ٥٢ ، ٥٣ .

الملك بعد العرش والكرسى – وهما فى الجهة الفوقية أيضًا – فلا نستطيع أن نقبل تأويل من تأول السموات السبع بأنها الكواكب السيارة هذه السبعة أو الأفلاك السبعة – كما فى التفاسير القديمة – وأن الكرسى هو الفلك الثامن والعرش هو الفلك التاسع جريًا وراء علم الفلك اليونانى القديم . الذى جاء علم الفلك الحديث وأثبت أن هذا كله خرافات . ولذلك لا ينبغى أن ينشغل بها من يريد أن يفهم كتاب الله عز وجل . ولا ينبغى أن نقع فى مثلها فى عصرنا .

السموات هى هذا الكون العلوى العظيم من فوقنا لا نعرف منه إلا القليل . ترى هل ما نعرفه من هذه الكواكب والنجوم التى تصل إلينا أشعتها بعد ملايين السنين – كما يقول الفلكيون – هل هو السماء الدنيا ؟ والله تعالى يقول : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ﴾[فصلت : ١٢] ، ويقول﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات : ٦ ، ٧] ، كان هذه الكواكب والنجوم هى زينة السماء الدنيا . وهل بعد هذه السماء الدنيا سموات أخرى لا نعلمها ؟ قد يكون . ولا نخوض فى هذا لأنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً . ورحم الله امرأ عرف حده فوقف عنده . ومن سعادة جدك وقوفك عند حدّك .﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤] .

المهم أن هذه السموات العلى هذا البناء العظيم رفعه الله تعالى بغير عمد ترونها . ومعنى رفعها أى خلقها مرفوعة . وليس معناها أنها كانت خفيضة فرفعها .ولكن ابتدأها وأنشأها مرفوعة هكذا .

« بغير عمد » كيف رفعت بغير عمد ؟ . العرب عرفوا الخيام وهذه الخيمة الصغيرة ما كانوا يستطيعون رفعها بغير عمد فى اطرافها وفى وسطها . فكيف بهذه الخيمة الكبرى ؟ . بهذه السموات كيف رفعها الله بغير عمد ترونها ؟ ترى هل النفى هنا للموصوف والصفة معًا ؟ أى ليس هناك عمد بالمرة مرئية أو غير مرئية . أم أن النفى للصفة ؟ وهناك عمد غير مرئية ؟ . وعمد جمع عماد وعمود . فهل هناك أعمدة يقوم عليها هذا البناء العلوى العظيم ولكننا لا نراها ؟ هذا ما يفسره العلم الحديث بأنه القوى الجاذبة التى تمنع تلك الأجرام

العظيمة أن تتصادم أو تتهاوى أو تتساقط . وتحفظ بعضها أن يرتطم ببعض بالجاذبية والقوى الطاردة . فهل هذه القوى هى العمد غير المرئية ؟ يمكن أن يكون هذا فالله هو الذى ﴿ يُمسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا ﴾[فاطر : ٤١] وقد تساءل رائد الفضاء الروسى جاجارين حينما صعد إلى الفضاء ونظر إلى الأرض من بعد فقال : ما أجملها ، من علقها ؟ ، الذى علقها هو الله عز وجل الذى أمسكها أن تزول وتسقط . والسموات أعظم من الأرض وقد رفعها الله بغير عمد ترونها .

استواء الله على عرشه :

ثم استوى على العرش » كيف استوى على العرش ؟ هناك معركة كلامية – لا نريد أن ندخل فيها – بين السلف والخلف فى معنى الاستواء. والمعنى واضح فهمه الصحابة دون أن يسألوا عنه . فالله استوى على عرشه . يدبر الأمر يعنى أمر الملك والملكوت . ينظم هذا الكون . هكذا فهم الصحابة الاستواء على العرش . يعنى انفراد الله سبحانه وتعالى بهذا الملك . وتفرده بالتدبير سبحانه وتعالى من فوق عرشه . وجاء بعد ذلك من جاء . وجعل من هذه القضية معركة بين السلف والخلف . بين من يؤول ومن لا يؤول . ونحن لا نحب فى أمور الغيبيات المتعلقة بالله تبارك وتعالى . أو بالدار الآخرة ، أن نخوض فى تفاصيلها . أو نبحث عن كنهها . بل نقول كما قال السلف: استوى استواء يليق بذاته . ومذهب السلف هو الراجح – عندنا – في هذه القضايا . لان قضايا الألوهية أكبر من عقولنا فلا ينبغى أن نبدد طاقات عقولنا فيما لا تستطيع أن تصل إليه أو تعرف حقيقته . وهى التى لم تصل إلى كل حقائق الوجود المادى بعد . فالعلم يقول إننا لم نعرف من حقائق الكون المادى إلا نسبة ضئيلة (٣ ٪) . والنسبة الكبرى (٩٧ ٪) التى يسمونها (الأعماق السوداء)لا نعرف عنها شيئًا،والله يقول:﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾[الحاقة : ٣٨ ، ٣٩] وما لا نبصر أكثر . فكيف نطمع أن نعرف الله سبحانه وتعالى ؟! . إننا نؤمن به دون أن نبحث فى التفاصيل أو الكيف . والسلف كانوا يؤمنون بهذا دون تكييف ولا تمثيل كما ورد ذلك عن أم سلمة

وعن ربيعة وعن الإمام مالك حينما سئل عن الاستواء ، فقال : « الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . لأن السؤال عن ذلك يفتح باباً من أبواب الفتنة ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران : ٧] لهذا فنحن نوفر الطاقة العقلية للبحث فيما يفيد . ولا نبحث فى هذه الأمور ولا نطيل فيها . ومن ناحية أخرى فقد اتفق الجميع – سلف وخلف – على أن ذات الله تعالى ليست كسائر الذوات . والمفروض أن نقول : إن صفات الله تعالى ليست كسائر الصفات . وأفعال الله تعالى ليست كسائر الأفعال . فلا نقيس الغائب على الشاهد ؛ لأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] . ثم نحن لا نأمن إذا دخلنا فى باب التأويل وخضنا لجته أن نقول على الله بغير علم . وإذا سلّمنا كان ذلك أسلم لنا . فلو قال الله سبحانه وتعالى : ماذا قلتم فى شأنى ؟ نقول : آمنا بما وصفت به نفسك وبما وصفك به رسولك ﷺ . وهكذا نخرج من العقدة . ولكن لو أولنا ربما سئلنا : من أين لكم ما قلتم ؟ كيف قلتم علىَّ ما لا تعلمون ؟ فلا نجد جوابا .

ثم إن الجميع قد اتفقوا على أن مذهب السلف أسلم . ومعنى هذا أن مذهب الخلف الذين أوّلوا لا يخلو من خطر . والإنسان فى باب العقائد لا يعدل بالسلامة شيئاً . ولهذا نترك الدخول فى معمعة التأويل ، فهناك أشياء يتكلف تأويلها ، كأن تقول اليد معناها القدرة أو النعمة ، فما معنى ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [سورة ص : ٧٥] على هذا التأويل ؟ لا نجد إلا نوعاً من التكلف المرذول . ثم إن كثيراً من الذين أوّلوا انتهى فى أواخر عمره إلى مذهب السلف فى عدم التأويل . كإمام الحرمين فى رسالته النظامية . والغزالى فى كتابه : الجام العوام عن علم الكلام ، وإمام المؤولين الفخر الرازى الذى دافع عن التأويل وكتب فيه كتبا ثم انتهى فى كتابه « أقسام اللذات » إلى قوله : لقد تأملت المناهج الفلسفية والطرق الكلامية فوجدتها لا تشفى عليلا ولا تروى غليلاً . ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن .

اقرأ فى الإثبات ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] . واقرأ فى النفى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] . وكذلك الإمام أبو الحسن الأشعرى أوّل فى مطلع حياته ثم رجع عن التأويل فى كتابه : الإبانة فى أصول الديانة . وكتابه مقالات الإسلاميين . وفى رسالته إلى أهل الثغر . وانتهى إلى مذهب الإمام أحمد ، وهذا أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ .

ثم إن الذين أوّلوا لابد لهم فى النهاية أن يتفقوا مع الآخرين كما قال الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى بعض كتبه ، إن الذين يؤولون الاستواء بالاستيلاء لابد لهم أن يؤولوا الاستيلاء أيضا . إذ كيف يكون استيلاء الله تبارك وتعالى ؟ ، ويذكرون فى هذا بيتاً من الشعر يقولون إنه منحول :

قد استوى بشرّ على العراق من غير سيف ودم مهراق

فهل استواء الله تعالى على عرشه كاستواء بشرّ على العراق ؟ ، لا يمكن أن يقول ذلك أحد . فهو استيلاء ليس كاستيلاء المخلوقين . وبهذا يتفق الفريقان .

فنحن إذن نأخذ بمذهب السلف ولا نخوض فى لجة التأويل . ومذهب السلف ليس كما يفهمه العوام أو يصوره بعض الغلاة ممن يدّعون السلفية الذين يقول بعضهم : فهذا لا يمكن أن يقوله سلفىّ يعرف معنى السلفية لأن هذا تشبيه،والتشبيه ممنوع . أما السلف فيقولون نثبت لله ما أثبته لنفسه بلا تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ، كما يقول تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه شَىْءٌ ﴾ .

وأحب أن أضيف أننا إذا رجحنا مذهب السلف . فليس معنى هذا أننا نضلل الآخرين ممن أوّلوا أو نكفرهم . فبعضهم من أعلام الأمة ، وما كانوا يقصدون إلاتنزيه الله تبارك وتعالى ، وشرح الإسلام للعقليين من الناس ، فوجهتهم حسنة ونيتهم طيبة . ولا ينبغى أن نرميهم بالكفر أو بالفسوق أو بالإثم . لكن نقول إن مذهب السلف هو الأرجح والأسلم هنا ، رغم مبالغة بعضهم وقوله ليس هناك عرش ولكنه كناية ، كما نقول استوى الحاكم على سرير الملك ولعله لم يجلس عليه قط أو لعله ليس له سرير ولا عرش . فهذه مبالغة مرفوضة . والشىء المؤكد أن هناك عرشًا . وقد ذكره الله تبارك وتعالى فى أكثرمن عشرين آية من كتابه الكريم . وذكر أن له حملة ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [غافر : ٧] ، وهذا فى الدنيا . وفى الآخرة ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٧] ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الزمر : ٧٥] ، فهناك عرش حقيقى .. وقد ذهب المحققون من علماء المسلمين ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم إلى أن من اجتهد فى فهم دين الله وفى طاعته فى المسائل العلمية الأصولية والعملية الفروعية فهو دائر بين الأجر والأجرين . أى أنه مأجور وليس مجرد معذور، فإن أخطأ فله أجر واحد وإن أصاب فله أجران .

* * *

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد : ٢] .

تسخير الشمس والقمر ومعناه :

عنى القرآن بهذا الكون عناية بالغة ، عنى بالسموات ، بالأفلاك ، بذلك العالم العلوى من فوقنا ، وعنى فيه خاصة بالشمس والقمر ، ورغم وجود نجوم أخرى لا عد لها ولا حصر ،ولا يعلمها إلا الله عز وجل ، ومنها ما هو أكبر من الشمس بآلاف المرات وملايين المرات ، ولكن الشمس – وهى نجم – والقمر – وهو كوكب – هما اللذان يهمان البشر ، لهذا ذكر الشمس والقمر فى القرآن الكريم أكثر من ثلاثين مرة ، قد تذكر فيها الشمس منفردة ، وقد يذكر فيها القمر منفرداً ، وقد يذكران معاً ، وقد ذكر تسخيرهما فى ستة مواضع من القرآن منها هذا الموضع الذى معنا ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ .

وهنا نتساءل لم سخر الشمس والقمر ؟ إنهما سخرا لنا لم يذكر القرآن من المسخر له الشمس والقمر هنا فى هذا الموضع ، ولكنه ذكر فى آيات أخرى أن ذلك التسخير لنا ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾[إبراهيم : ٣٣] ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾[النحل : ١٢] فكل هذه مسخرة لنا .

فما معنى التسخير إذن ؟ التسخير سوق الشىء قهراً إلى غاية يقصدها المسخر ، أو هوتذليل الشىء وسوقه بعصا القهر ، فالشمس والقمر مسخران ذللهما الله وسخرهما ، الشمس ذلك النجم العظيم الذى هو أكبر من أرضنا بملايين المرات سخره الله عز وجل ، وسخره لنا لمصلحتنا نحن البشر فوق هذه الأرض ، تستفيد من ضيائها وحرارتها بالنهار ونستفيد من ضيائها بالليل على وجه القمر ، فهى مسخرة لنا ، وليست إلهًا ولا معبوداً كما صنع ذلك من صنع طوال التاريخ ، فهناك أناس عبدوا الشمس ، وأناس عبدوا القمر ، وأناس عبدوا الكواكب ، وقد ضلَّت البشرية حينما عبدت الأشياء المسخرة لها ، ومشكلة البشرية ليست فى الإلحاد ، فالإلحاد شىء ضئيل جداً ، ولهذا لم يأت

الرسل ليقيموا الدليل على وجود الله ، ولا ليقاوموا الإلحاد والجحود ، إنما جاءوا ليقاوموا الشرك ، جاء كل منهم لقومه يقول : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[الأعراف : ٥٩ ، وتكررت فى آيات أخرى] .

وكانت مشكلة البشرية على مدار التاريخ فى الشرك الذى أفسد العقول ، وكان وكراً عششت فيه الأباطيل والخرافات ، فعبد الناس مظاهر الطبيعة المختلفة ، ومظاهر القوة ومظاهر النفع ، ومن أجل ذلك عبدوا الشمس وعبدوا القمر وعبدوا الكواكب من قديم ، فالمصريون القدماء عبدوا الشمس الإله رع ، وأهل سبأ عبدوا الشمس كما حكى عنهم القرآن على لسان الهدهد الذي ذهب إلى سبأ وعاد يقول : ﴿ وَجِئْتُكَ من سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّى وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ من كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ من دُونِ اللهِ ﴾[النمل : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤] .

فالناس ضلوا بعبادة هذه الأجرام السماوية ، ولا عجب إذا كان هناك من عبد الحجر ، بل هناك من عبد إلهًا من العجوة فإذا جاع أكله ! لا عجب إذا عبدوا الشمس التي يرونها من بعيد ،وجاءت عقيدة التوحيد تحريراً للإنسان من العبودية للأشياء أيًّا كانت هذه الأشياء سواء كانت فى عالم الأرض أو فى عالم الأفلاك ، وإعطاء الإنسان هذه الفكرة العظيمة الإيجابية النافعة ، إن كل ما في الكون مسخر للإنسان ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[الجاثية : ١٣] .

فهذه الشمس ، هذه الكتلة الملتهبة الضخمة مسخرة للإنسان ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ ، والقمر تابع للأرض وهو أكبر تابع من توابعها ، وله صلة بحياة الإنسان من ناحية المد والجزر والإضاءة فى الليل وغير ذلك ، فالقمر والشمس كلاهما مسخران من قبل الله تبارك وتعالى للإنسان ، ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يجريان ، الشمس تجرى ، والقمر يجرى كما قال الله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[يس : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠] وقد قال بعض أهل الفلك والجغرافيا الفلكية فى وقت من الأوقات : أن الشمس ثابتة والأرض هى التى تدور وتتحرك ثم ثبت خطأ هذا ، وأن الشمس تدور وتتحرك

أيضًا بمعدل دورة فى كل خمسة وعشرين يومًا عندخط الاستواء ، وفى كل خمسة وثلاثين يومًا عند القطبين ، فالشمس لها دورتها ، والقمر له دورته أيضا فى كل سبعة وعشرين يومًا ونصف اليوم دورة وأكملت بعد ذلك بيومين لتكون تسعة وعشرين يومًا ونصف اليوم وهذه هى عدة الشهر القمرى ، فكلاهما إذن – الشمس والقمر – يدور ويتحرك ، وكل ما فى الكون يتحرك ولكنها حركة منتظمة ، حركة فى إطار ثابت وحول محور ثابت ،فالحركة أصل فى الكون والثبات أصل فيه أيضا .

﴿ كُلٌّ يَجْرِى ﴾ أى كل من الشمس والقمر يجرى ، واختار القرآن كلمة يجرى مثل جريان الفلك ، ﴿ وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] ومثل كلمة السبح ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] كأن هذا الكون بحر كبير تجرى فيه الشمس ويجرى فيه القمر ، وتسبح فيه النجوم فى أفلاكها ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .

﴿ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ الأجل المسمى هو الوقت المحدد ، فهل تجرى الشمس والقمر إلى وقت محدد هو إكمال الدورة أى الشمس تكمل دورتها والقمر يكمل دورته ثم يعود كل منهما إلى الدوران من جديد دون توقف ؟ ، أم أنهما يدوران لأجل مسمى وهو الأمد الذى قدَّر الله تبارك وتعالى أن تنطفىء فيه الشمس وأن يعتم أو يخسف هذا القمر كما قال تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير : ١ ، ٢ ، ٣] حينما يأذن الله تعالى بأن يطوى صفحة هذا العالم ؟ هذا جائز وممكن أن يكون هذا الأجل هو القيامة عندما تقوم الساعة ، وممكن أن يكون الأجل المسمى للدورة المحددة ثم يعود كل منهما من جديد ، ولعل هذا هو الأوفق لأن الله قال بعد ذلك ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ وهذا من جملة تدبير الله عز وجل ، تسخير هذه الأجرام لمنفعة الإنسان .

تدبير الله للأمور :

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ أى يصرفه تصريف من يعلم أدباره وعواقبه ، قد يعلم بعض الناس أوائل الأمر ولا يعرف أواخره ، يعرف الحاضر ولا يعرف المستقبل ، يعرف شيئًا وتغيب عنه أشياء ، ولكن الله سبحانه وتعالى حينما يقضى أمرًا يعرف ما وراءه ، يعرف العواقب القريبة والبعيدة ، فمثلاً حينما ألقى إخوة

يوسف أخاهم يوسف فى الجب ما كانوا يعرفون ما سوف يحدث بعد ذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم أن يوسف سيلتقطه سيارة ويبيعونه إلى عزيز مصر ، وسيكرم مثواه ، وسيقع فى محنة ويلقى به فى السجن ، وسيخرج ويحدث له أشياء كثيرة ويصبح عزيز مصر ، ويجعل الله على يديه بعد ذلك إنقاذ مصر وما حولها من المجاعة الطاحنة والأزمة الخانقة التى كادت تقتل الناس ، فالله هو الذى يدبر الأمر ويعلم العواقب ، ولذلك فالتدبير من صفات الله تعالى ومن أسمائه ، وقد اشتهر عند الناس : العبد يفكر ، والرب يدبر ، أو العبد فى تفكير والرب فى تدبير ، وماذا يدبر ؟ ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ ، وأل فى الأمر للاستغراق ، فالأمر هو كل الأمر : أمر السماء وأمر الأرض ، أمر الإنس وأمر الجن ، أمر الإنسان وأمر الحيوان ، وأمر النبات ، وأمر الجماد ، وأمر العالم الأرضى وأمر عالم الأفلاك ، أمر اليوم وأمر الغد ، الأرزاق والآجال ، الإماتة والإحياء ، الإفقار والإغناء ، الإسعاد والإشقاء ، الإضحاك والإبكاء ، الضر والنفع ، والخفض والرفع ،كل شىء يدبره الله تعالى ويدبره على أحسن الوجوه وأحكمها ؛ لأنه يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران : ٥] فعنده العلم وعنده الحكمة ، وعنده القدرة ، فلماذا لا يدبر الأمر على أحسن الوجوه ؟ وهذا من مقتضى ملكه وسلطانه ، ولذلك جاءت مسألة التدبير هذه فى القرآن الكريم ثلاث مرات بعد الاستواء على العرش ، كما قال تعالى فى سورة يونس : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِه ﴾ [يونس : ٣] وجاء فى سورة السجدة أيضًا بعد الاستواء على العرش ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[السجدة:٥] وفى آية الرعد التى معنا:﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ فالتدبير من صنعه سبحانه ومن صفته ، والله سبحانه وتعالى ذكر ما يدل على اعتراف المشركين له بالتدبير : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ، وَمَن يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ، وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ

اللهُ ﴾ [يونس:٣١] هـكذا حتى المشركون إذا سـألتهم من يـدبر الأمر ؟ ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ .

فالله هو المدبر ،ولا نقول عن غيره مدبر الأمر وإنما نقول فلان مدبر أمراً كما قال الله تعالى فى سورة النازعات : ﴿ فَالمدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات : ٥]أى أمراً من الأمور هكذا بهذا التنكير، سواء قلنا : إن هذه المدبرات هى الملائكة أو قلنا : إنها الغزاة أو خيل الغزاة ﴿ والنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥]من باب المجاز ، المهم أنه أمر من الأمور ، أما مدبر الأمر فهو الله سبحانه وتعالى ، لكن ليس معنى هذا أن الإنسان لا عمل له ولا سعى له ، وأن يترك كل شىء بزعم أن الله هو المدبر كما قال ذلك بعض الصوفية ، فبعضهم ألف كتاباً أسماه « التنوير فى إسقاط التدبير » وهذا فى الواقع نوع من الغلو لأن تدبير الله سبحانه وتعالى لا يعنى أننا لانفكر فى أمورنا ولا نرتبها ولا نخطط لها ، بل يعنى أن نخطط وندبر كما خطط سيدنا يوسف لمدة خمسة عشر عاماً ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ، فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِه إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [يوسف : ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩] ، وكما خطط الرسول ﷺ للهجرة ورتب لها .. وهكذا فالأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل على الله ، والسعى والتفكير وترتيب الأمور وفق سنن الله تعالى لا ينافى التدبير من عند الله سبحانه وتعالى .

تفصيل الآيات من الله تعالى :

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ يدبر ويفصل الآيات يبينها مفصلة متميزة بعضها عن بعض ، واضحة كالصبح لذى عينين ، وهنا نتساءل أهى الآيات التنزيلية آيات الكتاب المحكمة ؟ ولعل هذا هو الأقرب لأنه يتفق مع قوله ﴿ تِلْكَ آيَاتِ الكِتَابِ ﴾ فى مطلع السورة ، فهو يفصل الآيات حتى تقتنع العقول وتستنير القلوب وتحيا الضمائر بهذه الآيات ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٥] وهنا لتستبين سبيل المؤمنين ، أم أن الآيات هنا

فى هذا الكون الدالة على وجوده وعلى وحدانيته وعلى كمال قدرته وعلى واسع رحمته وعلي بالغ حكمته ؟ هى آيات أيضًا ولعل هذا هو ما يفيده قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لتَهْتَدُوا بهَا فى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَات لقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذى أَنشَأَكُم من نَّفْسٍ وَاحدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَات لقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام :٩٧، ٩٨] فالآيات هنا لعل الأرجح أن تكون كونية ، فالله يفصلها كما يفصل الآيات التنزيلية .

معنى اليقين بلقاء الله وأهميته :

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَات ﴾ لماذا ؟ ﴿ لَعَلَّكُم بلقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقنُونَ ﴾ الله سبحانه وتعالى أقام هذا الكون الكبير ، هذا الكون البديع ، هذا الكون الذى أحسن الله فيه كل شىء خلقه ، وأتقن فيه كل شيء صنعه ورتبه أحسن ترتيب ، وأحكمه أروع إحكام ، لماذا فعله هكذا ؟ ولماذا سخر ولماذا دبر ؟ ، ولماذا فصل الآيات ؟ ﴿ لَعَلَّكُم بلقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقنُونَ ﴾ « ولعل » فى القرآن الكريم تأتى إما للترجى وإما للتعليل وأضاف بعضهم معنى ثالثًا فقال : إنها قد تأتى للاستفهام مثل ﴿ لاَ تَدْرى لَعَلَّ اللهَ يُحْدثُ بَعْدَ ذَلكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق : ١] ، ومثل : ﴿ وَمَا يُدْريكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَريبٌ ﴾ [الشورى : ١٧] لكنها أكثر ما تأتى للترجى أو للتعليل ، ومعنى الترجى أى توقع حصول شيء يحبه الإنسان كأن تقول : لعل هذا يحدث ، أو تقول عسى أن يحدث كذا ، وأحيانًا تفيد التعليل مثل الأوامر القرآنية كما قال الراغب الأصفهانى : إنها تحتمل الترجى وتحتمل التعليل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلحُونَ ﴾ [الحج : ٧٧] أى راجين أن تفلحوا ، أو لكى تفلحوا بمعنى التعليل ، وقال الراغب الأصفهانى : إنها إذا جاءت فى معرض الخطاب ولم يكن قبلها أمر فالغالب أنها تفيد التعليل مثل الآية التى معنا هنا : ﴿ لَعَلَّكُم بلقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقنُونَ ﴾ أى لكى توقنوا بلقاء ربكم ، فالله رفع السموات وسخر الشمس والقمر ويدبر الأمر ويفصل الآيات لتوقنوا بلقاء الله عز وجل ، أى لتؤمنوا بالآخرة وتعلموا أن هذه الحياة وراءها حياة أخرى ، وأن الموت ليس نهاية

المطاف ، وإنما هو رحلة إلى عالم آخر كما قال عمر بن عبد العزيز : إنما خلقتم للأبد وإنما تنقلون بالموت من دار إلى دار ، وكما قال الشاعر الصالح :

وما الموت إلا رحلة غير أنها من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى

فهذا الكون الذى خلقه الله عز وجل وتلك الدلائل التى نصبها لنا لنعلم أن هناك حياة أخرى وداراً أخرى ، توفى فيها كل نفس ما كسبت وتخلد فيما عملت وهذا هو معنى لقاء الله أى وقوف الإنسان بين يدى ربه يوم العرض للحساب والجزاء والثواب والعقاب فلابد أن نعلم هذا بيقين .

واليقين أن يعلم الإنسان الشىء علماً لا شك فيه ينتفى عنه الريب والشبهات ، فهو العلم الجازم الذى لا يحتمل النقيض وهذا هو اليقين ، تقول أيقن الشىء أو أيقن به إذا علمه علماً لا شك فيه ، فاليقين هو الأمر الواضح الثابت الذى لا شك فيه ولذلك سمى الموت يقيناً ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] أى يأتيك الموت فهذا أمر لا شك فيه ، والله تعالى يقول : ﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ [المدثر : ٤٧] أى أتانا الموت .

فقوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ يعنى تؤمنون به إيماناً جازماً لا يتطرق إليه ريب ولا شك ، وينبغى أن نعلم أن هناك مراتب ، فهناك اليقين ، وتحت اليقين الظن ، وهناك من الظن الراجح والضعيف ، وهو أقرب إلى الشك أو إلى الوهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢] فهذا هو الظن الضعيف لأن كلمة « ظناً » هكذا بالتنكير تدل على التحقير .

والظن الراجح أحياناً يعبر به عن اليقين كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة : ٤٦] وكما قال أيضاً : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] فالظن إذا كان راجحاً يكفى الإنسان ليخشى الله عز وجل ويؤمن بلقائه قال تعالى : ﴿ إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : ٢٠] ، أما الظن

الضعيف كما قلنا فهو أشبه بالشك ، وعندنا الظن الذى هو الإدراك الراجح ، والإدراك المستوى الطرفين يسمى شكًّا ، والإدراك المرجوح يسمى وهمًا ، فلا الوهم ينفع ولا الشك ينفع .

لكن المطلوب فى أمر الآخرة هو اليقين ، ولذلك وصف الله تعالى المتقين فى أول سورة البقرة فقال : ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة : ٤] فلا تقوى بغير يقين ، وفى سورة النمل : ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [النمل : ٢ ، ٣] وكذلك فى سورة لقمان وصف المحسنين بأنهم ﴿ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [لقمان : ٤] فالمتقون والمؤمنون والمحسنون لا يمكن أن يكونوا إلا موقنين بالآخرة ، واليقين بالآخرة هو دواء كل داء ، ومشكلة البشرية هى عدم الإيمان بالآخرة ،ومع أن هذه القضية المصيرية الأولى ، فلو آمن الناس بالآخرة لانحلت العقد وانحلت المشاكل ، ولكن الناس يعيشون ليومهم ، ولا يفكرون فى غدهم ، ولو أنهم آمنوا بالآخرة لرتبوا حياتهم ترتيبًا آخر ، وفكروا لها تفكيرًا آخر ، ولذلك كان القرآن مركّزًا على هذه القضية « اليقين بالآخرة » وانصراف الناس عن الإيمان بالآخرة هو أصل كل فساد : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ*أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[يونس:٧، ٨] .

* * *

﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا ، وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد : ٣] .

بعد أن تحدث الله عن العالم العلوى ، عن السموات التى رفعها بغير عمد ، وعن استوائه سبحانه على العرش ، وتسخيره الشمس والقمر يجريان لأجل مسمى ، نزل الله سبحانه وتعالى بنا إلى هذه الأرض التى نعيش عليها ، أجل ، بعد أن حدثنا عن السماء من فوقنا ها هو يحدثنا عن الأرض من تحتنا ومن حولنا .

اهتمام القرآن بالأرض بعد السماء :

ولابد للإنسان أن ينظر فى العالم من حوله ، من فوقه ، ومن تحته :﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧] ولأن السموات أعظم فقد بدأ الله بها،ثم ثنَّى بالأرض : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا ﴾ وقد نبهنا القرآن فى آيات كثيرة ووفيرة إلى هذا الكوكب الذى نعيش عليه «الأرض» التى ذُكرت هكذا معرّفة – بإعرابها مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة – أربعمائة وإحدى وخمسين مرة فى القرآن الكريم كله (١) ، وهذا ليلفت أنظارنا إلى هذه الأرض .

المراد بكلمة (الأرض) فى القرآن :

والأرض حينما تذكر فى القرآن تذكر بمعان ثلاثة :

أولها : أن يراد بها هذا الكوكب الذى نعيش عليه ، ومعظم ما جاء فى القرآن الكريم من لفظة الأرض جاء بهذا المعنى ، وخصوصاً إذا قوبلت بالسماء فى نفس الآية ، أو فى مثل ما معنا الآن ﴿ اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ

---

(١) وردت لفظة الأرض مرفوعة أربعًا وثلاثين فى القرآن ووردت منصوبة ستًّا وثمانين مرة ، ومجرورة ثلاثمائة وإحدى وثلاثين مرة ليكون المجموع أربعمائة وإحدى وخمسين مرة .

تَرَوْنَهَا ﴾ ، ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ ﴾ فهنا يتضح لنا أن الأرض هى هذا الكوكب الذى يقابل السماء فى نظر القرآن .

وثانيها : أن يراد بالأرض جزء من هذا الكوكب، كقطر من الأقطار،أو إقليم من الأقاليم حسب ما يدل عليه السياق ، كما جاء فى سورة يوسف :﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾[يوسف : ٥٦] فالمقصود أرض مصر وليس الأرض كلها،وحينما قال يوسف للملك:﴿ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ ، إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[يوسف : ٥٥] إنما قصد بالأرض هنا أرض مصر ، وكذلك حينما قال أخو يوسف ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِى أَبِى ﴾ [يوسف : ٨٠] قصد أرض مصر ، فالسياق دل على المراد .

ثالثها : أن يراد بالأرض أرض الجنة كما جاء فى أواخر سورة الزمر : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾[الزمر : ٧٤] .

فهذه المعانى الثلاثة هى التى تقصد بها كلمة الأرض حيثما ذكرت فى القرآن الكريم ، وأحيانًا يختلف المفسرون فى تحديد معنى الأرض مثل ما جاء فى أواخر سورة الأنبياء ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾[الأنبياء : ١٠٥] فقد اختلف المفسرون فى المقصود بالأرض هنا ، حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن الأرض هنا هى الأرض ، أى أرض يمكِّن الله فيها للعباد الصالحين بصلاحهم ، فهم الذين يستحقون الخلافة فى الأرض والتمكين فيها ، والصلاح هنا يشمل الصلاح الدينى والصلاح الدنيوى ، فهم صالحون لعمارتها ، وهم صالحون لزراعتها ، وهم صالحون لإقامة دين الله فيها ، وذهب بعض المفسرين إلى أن الأرض هنا هى أرض الجنة ، وكأنهم نظروا فى الواقع وقالوا : إن الأرض فى بعض الأحيان لا يرثها الصالحون ، وإنما يتمكن فيها الجبابرة والطغاة والكفار ، ويسلطون عليها ،فالمراد بالأرض على هذا أرض الجنة فى قوله تعالى : ﴿ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ .

فكلمة الأرض إذا ذكرت يقصد بها أحد هذه المعانى الثلاثة إلا فى موضع

فى سورة سبأ ، حيث قال الله عز وجل فى قصة سليمان : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾ [سبأ : ١٤] فقد ذهب بعضهم إلى أن الأرض هنا هى مصدر أَرَضَ يَأرِض ، لتخرج بذلك عن المعانى الثلاثة السابقة .

المقصود بالأرض هنا :

أما الأرض فى الآية التى معنا فالمقصود بها الكوكب الذى نعيش عليه بدليل أنه ذكرها بعد السموات ﴿ اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ ﴾ ومعنى أنه مد الأرض أى بسطها طولاً وعرضاً ، وهيأها لمعيشة الإنسان ، وهنا نجد القرآن الكريم حينما يحدثنا عن الأرض : يحدثنا أحياناً عن أن الله تعالى جعلها بساطاً ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾ [نوح : ١٩ ، ٢٠] ، أو جعلها مهداً : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ [طه : ٥٣] مثل مهد الطفل ، أو مهاداً ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ [النبأ: ٦] أو فراشاً : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾[البقرة:٢٢] ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾[الذاريات: ٤٨] أو قراراً : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ، أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ ﴾ [النمل : ٦١] .

فهى مهيأة ، تهيئة يمكن أن توصف بأنها فراش وأنها مهاد وأنها قرار وإنها بساط وأنها مستقر وأنها متاع : ﴿ وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [البقرة : ٣٦] المهم أن الله هيأها وذللها بحيث يستطيع الإنسان أن يقوم فيها بالمهمة التى وكلت إليه ، مهمة الخلافة ومهمة العمارة : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] هذه المهمة التى اشرأبت إليها أعناق الملائكة وتمنوا أن يكونوا هم أصحاب هذا المنصب ، ولكنهم لم يؤهلوا لذلك ، ولذلك حينما قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠] قال الله تعالى: ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] وبين لهم فى مسابقة عقدت بينهم وبين آدم أنهم لا يملكون

المؤهلات التى تجعلهم خلفاء فى هذه الأرض ، أما آدم فقد أوتى العلم الذى يمكنه وهم لم ويؤتوه ، فالإنسان مهمته أن يقوم بالخلافة فى الأرض وأن يقوم بعمارتها ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] واستعمركم أى طلب إليكم عمارتها فالسين والتاء للطلب ، كما يقول أهل اللغة .

مدّ الأرض وبسطها لا ينافى تكويرها :

فالله إذن قد هيأ الأرض ليقوم الإنسان فيها بالعمارة الخلافة ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ ﴾ أى بسطها ، وهنا يأتى السؤال هل هى مبسوطة أو مكوَّرة ؟ وقد قال المفسرون هنا : مدها : أى بسطها طولا وعرضًا حيث تتسع لحياة الإنسان ومعيشته ، فهل يتنافى هذا مع التكوير ؟ أى مع كونها كرة كما دل على ذلك العلم الحديث ؟ أقول : لا يتنافى ذلك مع التكوير أبدًا ، فالتكوير أصبح حقيقة واقعة ، ولم يعد حقيقة علمية ، بل أصبح حقيقة عملية ، فالإنسان قد دار حول الأرض آلاف المرات ، والمحاولات مستمرة بصورة أو بأخرى .

وقضية التكوير هذه سبق المسلمون بها غيرهم فى الوقت الذى كانت أوروبا تجهل كل الجهل هذا الأمر ، وتعتقد أن الأرض مبسوطة ، ولا يمكن أن تحتمل التكوير ، قبل أن يظهر كوبرنكس وجاليليو وغيرهما ، كان المسلمون يقررون ذلك فى كتبهم الدينية ، لا أقول الكتب الفلسفية أو العلمية أو الفلكية ، بل أقول الكتب الدينية فهذا ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والنحل » يدلل على كروية الأرض ويرد على من ينكر ذلك ، وفخر الدين الرازى فى تفسيره فى مواقع شتى يتحدث عن هذا ، وكتب علم الكلام ، الكتب التى خلطت الكلام بالفلسفة مثل المواقف والمقاصد وغيرها تتحدث عن هذا ، وكتب التفسير من المتقدمين والمتأخرين حتى العلامة الألوسى يتحدثون عن هذا الأمر ، فلم تكن هذه القضية مشكلة عند المسلمين ، ولكنها بالقطع كانت مشكلة عند النصارى ، عندما اكتشف المكتشفون بعد ذلك أن الأرض كرة وليست مبسوطة .

فالكروية لا تنافى البسط لأن الجسم العظيم بالنسبة لمن يعيش عليه يكون مبسوطًا ، والإنسان يرى الأرض مبسوطة مهيأة للحرث والزرع والبناء ، والواقع أنها لو لم تكن مبسوطة لما استطاع الإنسان أن يعيش عليها وما أمكنه أن يراها ممدودة ، ولو كانت الأرض مربعة أو مستطيلة أو مثلثة أو فى صورة دائرة لكانت ممدودة فى وسطها فقط : فى مركز الدائرة وما حوله ، فإذا ذهبت إلي الحوافّ أو الأطراف ، فلن تراها ممدودة لأن الطرف فى هذه الحالة يعنى المد فى ناحية واحدة ، فمن تأمل فى مد الأرض يجده بالفعل دليلاً على التكوير ، فالتكوير هو الذى تجد فيه المد والبسط فى أى مكان على الكرة ما دامت كرة كبيرة ، المد والانبساط فيها واضح ، فليس هناك إذن تنافٍ بل هناك تكامل بين عملية المد والبسط وعملية التكوير .

أهمية الجبال الرواسى للأرض :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾ أرساها بالجبال فالرواسى هى الجبال الراسية أى الثابتة الراسخة ، وقد سماها القرآن فى بعض الآيات أوتادًا : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ : ٦ ، ٧] تمسك الأرض أن تميد أو تضطرب ، فهى بمثابة الأوتاد للخيام .

هذه الجبال لها أهميتها فى منع الأرض من الميدان أو الاضطراب ، وهذا ما تفضل الله تعالى بذكره فى آيات كثيرة ، كما فى سورة لقمان : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ، وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ، وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان : ١٠ ، ١١) فالله ثبت هذه الجبال الرواسى فى الأرض حتى لا تميد الأرض .

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾ كما جعل الله فى الأرض الرواسى ، جعل فيها الأنهار ، لأن الحياة لا يمكن أن تتم إلا بالماء ، وهذه حقيقة قررها القرآن ، وقررها العلم ، وقررها الواقع ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[الأنبياء: ٣٠] ومن هنا جعل الله فى الأرض أنهارًا ، سواء كانت هذه الأنهار من ماء نبع من الأرض ، ثم سار وجرى أو كانت من السحاب كما هو الشأن

فى الأنهار ، وحتى الماء الذى ينزل من السحاب أصله الأرض كما قال تعالى: ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾[النازعات : ٣٠ ، ٣١] فأصل الماء خارج من الأرض ، ومعلوم أن السحاب ماء تبخر ،وقد قال الشاعر العربى :

كالبحر يمطره السحاب وماله فضـــــل عليه لأنه من مائه !

فالله هيأ هذه الأنهار بمياهها العذبة لإحياء الأرض بالنبات ، وليشرب منها الإنسان والحيوان:﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾[الفرقان : ٤٩] .

معنى كلمة (جعل) :

وكلمة « جعل » تأتي على عدة أوجه ، هناك جعل اللازمة وهى من أخوات كاد التى تسمى بأفعال الشروع فنقول : « جعل يصنع كذا » أى شرع فيه وطفق يفعل كذا وكذا وهذه لم تأت فى القرآن ، وهناك جعل المتعدية التى تأتى فى القرآن ، وأحيانًا تكون متعدية لفعل واحد ، وهنا تكون بمعنى أنشأ وأوجد كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ ﴾ [الأنعام : ١] أى أنشأ الظلمات والنور وأوجدها وخلقها ، وأحيانًا تكون متعدية لفعلين وتكون فى هذه الحالة من أخوات ظن ، كما هو مقرر فى علم النحو ، ومعناها تصيير شىء إلى شىء إما حقيقة أو اعتقادًا : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ [الزخرف : ١٩] وجعل التى معنا ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾ من المتعدى لفعل واحد بمعنى أنشأ وأوجد فيها رواسى وأنهارًا .

ظاهرة الزوجية فى النبات وفى الكون كله :

﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ من جميع الثمرات فى الأرض جعل الله سبحانه وتعالى زوجين اثنين ، وكلمة زوج أحيانًا تطلق على الفرد أو الشىء الذى يقرن بغيره من نظير له أو ضد له ، وأحيانًا تطلق على الاثنين فهناك زوج وهناك فرد ، وتطلق على الصنف ، فمن كل زوج صنف كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [سورة ق : ٧] أى صنف جميل حسن، وقال:﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾[الشعراء : ٧ ، لقمان : ١٠]

أى صنف أصيل رفيع القيمة ، فأما الزوج من الشىء وضده فمثل الذكر والأنثى ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ [النجم : ٤٥] .

فما المراد هنا من ﴿ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ؟ هل المراد من جميع الثمرات خلق الله صنفين اثنين مختلفين فى الكمية مثل الصغر والكبر ؟ أو فى اللون مثل الأبيض والأسود ، أو فى الطعم مثل الحلو والحامض ؟ ، أو فى الكيفية مثل الحرارة والبرودة ؟ ، هذا احتمال ، يعنى أنها أصناف مختلفة ، فمن كل الثمرات خلق الله أصنافًا مختلفة .

أم أن المراد أنه خلق من كل صنف زوجين اثنين ؟ أى زوجين زوجين ، أو صنفين صنفين أو نوعين نوعين،ثم تكاثرت هذه الأصناف وتنوعت ، وهذا مثل الذكورة والأنوثة،وقد ذهب إلى هذا بعض المفسرين،ولكنهم قالوا : لا دليل على هذا ، فلم يكن عندهم دليل على أن هناك ازدواجًا عامًا فى النبات وفى ثمراته ، وقد عرفوا من هذا فقط النخيل ، ففيه ذكورة وفيه أنوثة ، ومن قديم عرف الناس تأبير النخل وتلقيحه ، أما أن يكون ذلك شيئًا عامًا فى كل النبات ، فهذا ما لم يعرفوه ، ولذلك استبعده بعض المفسرين ، مع أن القرآن قرر ذلك فى آيات أخر ، وأشار إلى هذه الحقيقة الكونية التى أصبحت من الحقائق العلمية المعروفة فى عصرنا : أن النباتات مزدوجة ، فيها ذكورة وأنوثة ، وهناك حبوب التذكير وحبوب التأنيث ، وأنها تنتقل بين أفراد النبات عن طريق الحشرات كالنحل وغيرها ، أو عن طريق الرياح أو غير ذلك من الوسائل ، والله تعالى يقول فى سورة يس : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[يس : ٣٦] ، فهنا ممكن أن تفسر الأزواج بمعنى الأصناف ، أو بمعنى المزدوجة المتقابلة مثل الذكورة والأنوثة ، وهذا من إعجاز القرآن الكريم ، لأنه لو احتمل معنى واحداً كالمعنى الأخير فقط لكان ذلك شيئًا معمًّى على الناس فى عصر نزوله وما بعد عصر نزوله ، إذ لم يكتشفوا هذه الحقيقة ، فهو يمكن أن يفهم على وجه معقول ويؤدى الثمرة المطلوبة ، والأوضح

من ذلك والأشمل قوله تعالى فى سورة الذاريات : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] فهذه كلية مطلقة عامة .

وقد كان بعض المفسرين يقول : إنها أغلبية وليست كلية ، فهى من باب التغليب ، ولكن الواقع يقول لنا الآن : إن هناك ازدواجًا فى الكون ، وتقابلاً بين الأشياء ، كما نعرف فى الكهرباء الموجب والسالب ،وهنا نجد أن البناء الكونى يقوم على الذرات ، والذرة فيها الشحنة الكهربائية الموجبة وتقابلها الشحنة السالبة ، أو البروتون والإلكترون كما يقولون ، فأصبحت هذه الحقيقة القرآنية فعلاً حقيقة واقعية ، وأنا لست من الذين يلوون أعناق النصوص ليؤيدوا مكتشفًا علميًّا أو نحو ذلك ، ولكن إذا كان القرآن واضحًا فينبغى أن نصحح فهم الأولين ، أو نكمله إذا كانت الحقيقة حقيقة علمية فعلاً ، وكان النص القرآنى يتسع لها بغير تكلف ولا اعتساف .

فلا عجب إذن أن يفيد قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ زوجية المتقابلات هذه ، وهناك ذكورة وأنوثة فى النبات كما عبر عنها علماء البيولوجيا وعلم الأحياء .

معنى إغشاء الليل النهار :

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾يلبس الليل النهار فيغشِّيه ويلتف عليه،كما يلتف الملبوس على لابسه ، فالليل يستر النهار ، وبعد ذلك يأتى النهار فيطغى على الليل،أى أن كلاً منهما يعمل فى الآخر:﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] بصورة متعاقبة ، فظاهرة التعاقب بينهما واختلافهما لفت إليها القرآن كظاهرة كونية وحدثنا عن الليل والنهار فى نحو خمسين آية أو أكثر من ذلك ليلفتنا إلى هذه الظاهرة : أن الليل يعقبه نهار والنهار يعقبه ليل ﴿ وَجَعَلْنَا الْلَيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ: ١٠ ، ١١] ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ [القصص : ٧٣] ، إلى آخر ما جاء فى القرآن الكريم .

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ وفى سورة الأعراف : ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف : ٥٤] كأنما يسارع وراءه ويركض خلفه ، وجاء أيضًا : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ

عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ [الزمر : ٥] ولعل هذا أيضًا مما يفيد فى قضية تكوير الأرض ، وفى آيات أخرى ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ ﴾ [الحج : ٦١] أى يدخل كلاً منهما فى الآخر ، فهما متلاحقان ،كأنما أصبح كل منهما جزءاً من الآخر .

وقد تساءل بعض المفسرين هنا : لماذا ذكر الليل والنهار هنا ،وإغشاء الليل والنهار فى هذه الآية ، مع أن هذا يتصل بالشمس والقمر ، فكان المتوقع أن يكون ذلك فى الآية السابقة التى تحدثت عن الأفلاك والعالم العلوى ، وعن رفع السموات بغير عمد ، وعن الشمس والقمر إلى آخر ذلك ؟ وأجاب بعض المفسرين : بأن هذا يقع فى الأرض فربطه بموضوع الأرض ، ونحن فى عصرنا عرّفنا العلم بجواب أسَدّ وأصوب من هذا الجواب .وهو أن الليل والنهار مرتبطان في الواقع بالأرض أكثر من ارتباطهما بالسماء وبالشمس وبالقمر ، فالليل والنهار إنما يأتيان نتيجة دوران الأرض حول نفسها ، كما هو مقرر فى الجغرافيا الفلكية التى يدرسها التلاميذ فى مدارسهم ، الأرض تدور حول نفسها ، ونتيجة هذا الدوران اليومى كل أربع وعشرين ساعة يحدث الليل والنهار ، فهذه ظاهرة أرضية فعلاً ، ولسنا فى حاجة إلى تكلف الجواب الذى تكلفه بعض المفسرين .

الكون مجال للتفكر فى آيات الله :

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ هذه الظواهر الكونية فى عالمنا الأرضى ، فى كوكبنا الذى نعيش عليه ، من مدّ الأرض وإنشاء الجبال الرواسى أوتاداً للأرض ، وإنشاء الأنهار لتكون مصدراً للحياة ، حياة النبات وحياة الحيوان وحياة الإنسان ، وخلق هذه الثمرات من كلٍّ زوجين اثنين ، كل هذا جدير بأن يكون فيه آيات ودلائل على وجود الصانع الحكيم ، لأن هذا التدبير لا يمكن أن يكون من غير مدبر ، ولا يمكن أن تكون هذه الصنعة من غير صانع ، ولا يمكن أن يكون هذا الأثـــر من غير مؤثر ، ولا يمكن أن يكون هذا الإبداع من غير مبدع ، ولا يمكن أن يكون هذا التنظيم من غير منظم ، فهذا مستحيل .

وقد ألَّـــف بعضهـــم وهـــو – جـــوليان هكسلى – كتابًا تحت عنوان Man stands Alone الإنسان يقوم وحده مستغنيًا عن الإله ، ذكر فيه أن هذا الكون وجد أو نشأ بالصدفة ،وهو يقوم من غير إله ، وردّ عليه رجل من المتضلعين فى

شتى العلوم الكونية والرياضية وهو رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك أ ٠ هـ – كريسى موريسون فى كتاب أسماه « الإنسان لا يقوم وحده » وترجم إلى العربية تحت عنوان « العلم يدعو إلى الإيمان » وترجمه الأستاذ محمود صالح الفلكى ، وهو كتاب قيِّم يردّ فيه صاحبه بمنطق عالم راسخ متمكن فى الجيولوجيا وفى الفلك وفى الفيزياء وفى الكيمياء وفى النبات وفى الحيوان وفى الرياضيات ، فالرجل دائرة معارف علميـة وموسوعى ، ولذلك استطاع أن يردّ على هذا الرجل ، ويبين له بالمنطق الرياضى والمنطق العلمى : أن هذا الكون لا يمكن أن يقوم وحده ، ولابد أنه من صنع صانع حكيم ، وكل شىء فيه يدل على هذا ، وتحدث عن الأرض فقال : إن الحياة لكى تقوم على الأرض – حياة الإنسان – فإنها تحتاج إلى آلاف الموافقات والترتيبات والتدبيرات التى يستحيل أن تأتى صدفة ، وأنا لا أستطيع أن ألخص الكتاب هنا ولكنى أنصح بقراءته ، خصوصاً للذين يتعرضون لشبهات الملاحدة والجاحدين فى عصرنا ،والحمد لله فقد انهارت دولة الإلحاد ، الدولة التى قامت على « لا إله والحياة مادة » انهارت فى بلادها وللأسف لا يزال فى بلادنا أناس يتحدثون عن مثل هذا ويماحكون فى هذه الأشياء ويجادلون فى الله ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج : ٨ ، لقمان : ٢٠] ، فالرجل تحدث فى كتابه عن الحياة لكى تقوم على ظهر هذا الكوكب لابد من أشياء كثيرة ، ولو حدث أى خلل فى التنظيم الكونى ما أمكن أن تقوم الحياة على الأرض ، مثل أن تبعد الأرض عما هى عليه الآن عن الشمس قال :

ما كانت حرارة الشمس تكفى لأن تنشىء فى الأرض الحرارة الكافية لأن تقوم الحياة ، أو أن تقترب الأرض عما هى عليه الآن من الشمس فإن ذلك يجعلها تحترق، ولو كانت الأرض تدور بسرعة أكبر ما أمكن أن تقوم عليها الحياة لأن الضوء حينئذ لا يتسلط عليها بدرجة كافية ، وكذلك لو كانت أبطأ فى دورانها لتسلطت عليها حرارة الشمس فى الجهة المقابلة لها مدة أطول وبالتالى تحترق،ولتجمدت الأحياء فى الجهة الأخرى غير المقابلة من شدة البرودة ، وهكذا كل شىء ، سرعة الدوران ، والقرب ، والبعد ، والحجم لو كانت أصـغر حجماً

أو كانت أكبر حجمًا ، وكمية الماء لو كانت فى الأرض أقل أو أكثر ، وكمية الأكسجين والهيدروجين .. وكل شىء حينما تقرأ سوف تجده بمقدار ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨] ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] .

فالرجل قال : إن هذا لا يمكن أن يتم بالمصادفة العمياء ، وهو يناقش مسألة المصادفة مناقشة حسابية رياضية لا يتسع المقام لأحدثكم عنها وقد كتبت هذا فى رسالة عنوانها « وجود الله » .

فالقرآن – إذن – يلفتنا إلى أن هذه الظواهر الكونية فى هذه الأرض فيها آيات ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ و « ذلك » إشارة إلى تلك الظواهر مد الأرض وإنشاء الرواسى وإنشاء الأنهار وخلق الثمرات .. إلخ والمفسرون يقولون إن التعبير بـ « ذلك » فى مثل هذا الموقع دلالة على علو شأن المشار إليه وإن كان قريبًا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، فمن لا يتفكر مثل جوليان هكسلى هذا لا يجد أى آية ، ولكن الذى يتفكر – مسلمًا كان أو غير مسلم – لابد أن يصل إلى أن هذا الكون وراءه مكوِّن ، ومكون عظيم، فيستدل على وجود الله،ويستدل على عظمة الله تعالى وكماله،على عظيم قدرته، على جميل حكمته ، على إحسان صنعه؛لأنه﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة : ٧] ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨] فلا يصل إلى مجرد الإيمان بوجود الإله ، بل إلى كمال هذا الإله ، فلا يمكن أن يصنع هذا إلا من هو متصف بكل كمال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

القرآن والدعوة إلى التفكر :

والتفكر من الأمور التى ذكرها القرآن فى مجالات عدة ، وخصوصًا فى المجال الكونى ليثير فى الإنسان أن يتفكر ، أن يعمل عقله ، يستخدم هذه اللطيفة الربانية التى وهبها الله تعالى إياه لا يعطلها ولا يجمدها ، فشأن الكفرة والجاحدين أنهم يعطلون هذه الأجهزة الربانية التى جهّز الله بها الإنسان ، فلم تعد تغنيهم هذه الأجهزة شيئًا بعد الجحود : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ

وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] فالجحود خرّب هذه الأجهزة ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ، إن على الإنسان أن يدع الغفلة وينتبه لما حوله ويتفكر فى هذا الكون ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وقد جاء هذا التعبير « التفكر ومشتقاته » فى القرآن الكريم ما يقرب من عشرين مرة (١) على صور مختلفة ، فأحيانًا « تتفكرون » وأحيانًا « يتفكرون » وأحيانًا « يتفكروا » ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [الأعراف : ١٨٤] ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم .. ﴾ [الروم : ٨] ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ، أَن تَقُومُوا لِلهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا .. ﴾[سبأ : ٤٦] أى أن تقوموا مخلصين فى طلب الحق وهو معنى القيام لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا .

ومجالات التفكر فى القرآن : الكون بسمائه وأرضه ،والإنسان والتفكر فى خلقه ، والتاريخ ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الأعراف : ١٧٦] ، والقرآن نفسه : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر : ٢١] أمثال القرآن ، والعلاقات الاجتماعية : ﴿ وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] لابد للإنسان أن يتفكر فى شتى المجالات ،ولا يجمّد عقله ولا يعطّل فكره .

وكما يقول أهل اللغة : الفكر هو إعمال الخاطر فى الشىء ، وكما يقول أهل المنطق : هو ترتيب المعلوم للوصول إلى المجهول ، والمنطق نفسه قد عرّفوه بأنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى الفكر ، وحينما عرّفوا الفكر

---

(١) فى معجم ألفاظ القرآن الكريم إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة وردت ١٨ مرة منها فكّر وتتفكروا ويتفكرون وغيرها ص ٨٦٣ جـ ٢ وفى المعجم المفهرس (عبد الباقى) وردت ١٨ مرة ص ٥٢٥ والملاحظ أن مادة الفكر هذه لم ترد فى القرآن مصدراً وإنما أتت على صورة أفعال ولعل هذا أدعى لإعمال الفكر .

قالوا : الفكر هو ترتيب المعلومات التصورية أو التصديقية للوصول بها إلى مجهولات تصورية أو تصديقية .

و (التفكر) لفظة قرآنية الأساس ، لكثرة ترديد فعلها (يتفكر) فى القرآن . وجاء فى القرآن فعل (فكّر) مرة واحدة .

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ [المدثر : ١٨] وإن كان المشهور الآن على الألسنة (التفكير) ، ومن ذلك ما كتبه الأستاذ العقاد – رحمه الله – من كتابه : « التفكير فريضة إسلامية » – وصيغة التفعّل هذه التفكر – فى نظرى – أوسع من مجرد ترتيب المعلومات للوصول إلى المجهول ، لأن استخدام الاستقراء ، والنظر فى الأشياء الذهنية المجردة لاكتشاف المجهول ، والاختيار بين البدائل كل هذا يدخل فى التفكر .

التفكر فى الخلق لا فى الخالق :

والمهم أن يتفكر فى مخلوقات الله ولا يتفكر فى الخالق ، ولذلك نرى أن كل ما جاء فى التفكر فى القرآن بعيد عن التفكر فى ذات الله عز وجل ، ومن هنا جاء الحديث « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا » (١) وهو حديث ضعيف ، ولكنه روى من طرق يقوى بعضها بعضاً ، ولذلك حسنه بعض العلماء ، ومعناه صحيح باتفاق .

أما التفكر فلا يكون فى الله ، فمن أين للمخلوق أن يتفكر فى خالقه ؟ ومن أين للعاجز أن يتفكر فى القادر ؟! ، من أين للمحدود أن يتفكر فى المطلق ؟! من أين للناقص أن يتفكر فى الكامل ؟! ، وإذا كان الإنسان لم يعرف

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس رضى الله عنهما بلفظ « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله » ورواه ابن أبى شيبة عن ابن عباس ، ورواه الأصبهانى فى ترغيبه ، والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر مرفوعاً وبعض لفظه « تفكروا فى آلاء الله .. » كما رواه أبو الشيخ والديلمى ورواه أحمد مرفوعاً وغيره عن عبد الله بن سلام عن الرسول ﷺ ، واجتماع هذه الأسانيد يكسب الحديث قوة .

الكون المادى من حوله ، بل لم يعرف نفسه – حقيقة نفسه – فكيف يعرف غيره؟وقد ألَّف أحد أقطاب العلم العصـرى كتابًا سماه« الإنسان ذلك المجهول » ، وقال : إننا عرفنا الجمادات وقوانين الجمادات وقوانين الذرة ، وقوانين الكون من حولنا ، واكتشفنا هذه الظواهر ، ولكنا لم نعرف أنفسنا بعد .. [1] ، فإذا كان الإنسان لا يزال مجهولاً عند نفسه فكيف يطمع أن يدرك كنه ربه ؟! .

إدراك الكنه هذا بعيد ولا سيما بالنسبة للألوهية﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠] ولذلك ينبغى البعد عن هذه الساحة ،وعلى الإنسان أن يوفر طاقته وجهده الذهنى لما ينفعه ولما يستطيع أن يصل إلى الحقيقة فيه ، أما ما هو أكبر منه وأبعد عن اختصاصه ، فلا ينبغى أن يشغل نفسه به ، لأن ذلك سيدخله فى متاهة لا يستطيع أن يصل فيها إلى قرار ، والذين بحثوا فى مسألة الذات والصفات وغير ذلك من الأشياء التى خاض فيها بعض المتكلمين من المسلمين ، وصلوا فى نهاية الأمر إلى أنهـم خاضوا أو غاصوا فى بحر عميق كادوا يغرقون فيه ، وانتهى بعضهم فى النهاية إلى أنه كان يتمنى أن يعيش على إيمان العجائز، ويطلب إيمانًا كإيمان العجائز !! ويقول الفخر الرازى فى هذا :

العلم للرحمن جلّ جلاله وسواه فى جهـلاته يتغمغم

ما للتراب وللعـــلوم وإنما يسعى ليعلـم أنه لا يعلم ؟

وبعد أن حصّل أفكار المتقدمين والمتأخرين وغاص فيما غاص قال فى النهاية :

نهاية إدراك العقول عقال وغاية سعى العالمين ضلال

وانتهى إلى مذهب السلف فى التسليم فى الأمور التى يعجز العقل عن إدراك كنهها .

---

(١) هو أليكيس Carrel , Alexis جراح وعالم بيولوجى فرنسى ، ولد عام ١٨٧٣ م وتوفى ١٩٤٤ م ألف كتابه الشهير : الإنسان ذلك المجهول (L ' Homme , Cet inconnu) عام ١٩٣٥ م وترجم إلى العربية ونشر تباعًا .

وكذلك انتهى قبله الإمام الغزالى ، وشيخه إمام الحرمين ، رحمهم الله جميعا .

فالأشياء البسيطة لم يعـــرفها العقل ، فلم يعرف معنى الحياة ، ما هى الحياة ؟ ما هى حقيقة الحياة ؟ مع معرفته بآثار الحياة من نمو وتنفس وإفراز وعضوية ، فإذا عجز العقل الإنسانى عن معرفة بعض الحقائق المادية من حوله ، فكيف يطمع أن يعرف حقيقة الله تبارك وتعالى ، ولذلك ينبغى أن يكون مجال التفكر هو الكون وسنن الله فى هذا الكون ، والإنسان فى هذا الكون ، وتاريخ الإنسان ، ويتفكر فى آيات الله الكونية ، وفى آيات الله التنزيلية . فهذا هو الموضع الحقيقى للتفكير ، وهو الموضع النافع ، وإلا زلّت قدم الإنسان ودخل فى صحراء يتيه فيها وهيهات أن يخرج منها سالماً .

* * *

﴿ وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الأُكُلِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِى أَعْنَاقِهِمْ ، وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الرعد : ٤ ، ٥] .

آيات الله فى الأرض والزرع :

بعد أن حدثنا الله تبارك وتعالى عن رفع السموات بغير عمد ، وتسخير الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، وتدبير الأمر ، وتفصيل الآيات ،لعل الناس بلقاء ربهم يوقنون ، وحدثنا بعد ذلك عن هذا العالم السفلى الذى نعيش فيه ، عن هذا الكوكب ، عن هذه الكرة ، عن هذه الأرض ، وعن مدّ هذه الأرض وبسطها طولاً وعرضاً وتهيئتها لحياة الناس ، حياة الإنسان والحيوان والنبات فيها ، جعل فيها رواسى وجعل فيها أنهاراً ، وأغشى الليل النهار يطلبه حثيثًا ، وجعل فيها من كل الثمرات ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [هود : ٤٠] ، حدثنا عن جانب مهم من هذه الأرض التى نعيش عليها وهو ما يتعلق بالزرع والغرس ، أراد القرآن أن ينبه العقول الغافلة ، أن يزيح عنها حجاب الغفلة ، فكثيراً ما تكون الآيات بينة واضحة كالشمس فى رابعة النهار ، ولكن الناس لا ينظرون إليها ولا يعتبرون بها ، ومن شدة الظهور الخفاءُ ، فإلف النعم يقلل الإحساس بها ، بل قد يعـــدم الشعور بها ، والنعم ظاهرة ، والآيات واضحة لائحة ، ومع هذا فإن الناس لا يفكرون ولا يعقلون ولا يعتبرون ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٥] .

ومن ذلك آيات الله فى الزرع والغرس ، وهنا يلفت القرآن الأنظار إلى هذه الآية البينة ، ومن اللمحات الطيبة للشيخ طنطاوى جوهرى – رحمه الله – صاحب تفسير(الجواهر) المعروف ، والذى عنى بما يتعلق بالكائنات والطبيعة والموجودات والأفلاك والحيوانات والنباتات وبالغ فى ذلك إلى حد كاد ينسى معه التفسير ، وينسى معه القرآن حتى قيل فيه ما قيل فى بعض التفاسير قبله : فيه

كل شيء إلا التفسير ! يقول : عندما كنت أستمع إلى الدروس الدينية فى أول حياتى ، وكانت كلها تتعلق بالفقه : الوضوء والطهارة والعبادات وغيرها ، وبعضها يتعلق بحفظ أشياء تتصل بالعقائد ، كنت أقول فى نفسى – وأنا أنظر إلى الحقول فى بلدى وإلى الأشجار وإلى الأنهار – كيف لم يهتم الدين بهذا الأمر ؟ حتى التفتّ إلى القرآن ، فوجدته يعنى كل العناية بهذا الأمر ، لا فى آية ولا فى عشر آيات ، ولا فى عشرين ولا فى خمسين ، بل فى مئات الآيات ، يتعرض القرآن الكريم لهـذه الزروع ، وهذه الثمار ، وهذه الجنّات ، وهذه الأعناب ، وهذا النخيل ، ليلفت أحيانًا إلى ما وراءها من المنفعة ، ففيها بقاء الإنسان وحياته ، والإنسان خلق جسداً يأكل الطعام ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨] ليس كالملائكة وليس كالجمادات ، بل يحتاج إلى أن يأكل ويشرب ، فأهمية النباتات أن فيها مأكل الإنسان ومشربه ، والقرآن يقول : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ ولأنعَامكُمْ ﴾ [النازعات: ٣٣] ، ﴿ كُلُوا وارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ [طه : ٥٤] ﴿ تَأْكُلُ منْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصرُونَ ﴾[السجدة:٢٧] ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا منْهَا حَبًّا فَمنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فيهَا جَنَّات مّن نَّخيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فيهَا منَ الْعُيُون * ليَأْكُلُوا من ثَمَره وَمَا عَملَتْهُ أَيْديهمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾[يس : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥] ، وهو مليء بما يلفت الأنظار إلى هذه الزروع وهذه البساتين التى يأكل منها الإنسان ولولاها ما عاش .

وأحيانًا يلفت القرآن إلى الجانب الجمالى فيها يقول : ﴿ انظُرُوا إلَى ثَمَره إذَا أَثْمَرَ وَيَنْعه ﴾ [الأنعام : ٩٩] انظروا إلى هذه اليناعة وتمتعوا ﴿ فَأَنْبَتْنَا به حَدَائقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ [النمل : ٦٠] ذات حسن وجمال تنبهر بها الأنفس وتتمتع بها الأعين ، ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبتُوا شَجَرَهَا ﴾ [النمل:٦٠] ﴿ وَأَنبَتْنَا فيهَا من كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ ﴾ [سورة ق : ٧] يلفت الأنظار إلى جانب البهجة : ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضيدٌ ﴾ [سورة ق : ١٠] التنضيد والتنظيم والتنسيق ، والقرآن يلفت الأنظار إلى هذا كله .

ومن ذلك نجده يقول : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ﴾ قطع مختلفة من الأرض متجاورات متلاصقات ومتقاربات ،ومع تقاربها وتلاصقها فهى متباينة مختلفة ، فهذه أرض طيبة ، وهذه أرض سبخة ، هذه أرض تنبت الماء والكلأ ، وهذه لا تنبت ماء ولا كلأً ، وهذه تمسك الماء ولا تنبت الكلأ ، طبائع مختلفة فى الأرض ، هناك الأرض ذات التربة السوداء ، والأرض ذات التربة الحمراء ، وهكذا قطع متجاورات .

﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ أنواع مما يخرج من هذه الأرض منها النوع المتسلق ﴿ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ ﴾ [الأنعام : ١٤١] على عرائش مثل العنب ، وخص العنب بالذكر ؛ لأن له طبيعة خاصة ، هذا الكرم المتسلق والذى تصنع له العرائش ليتسلق عليها ،وهناك الزرع الذى ينتج الحبوب التى هى مصدر الأقوات من القمح والذرة والشعير والأرز ونحو ذلك كالخضروات التى تنبت على سطح الأرض ،وهناك النخيل هذا النوع السامق المرتفع العالى لطويل ذو الجذوع العالية ومثله من الأشجار المختلفة ،ولكن النخيل له أهمية خاصة ولا سيما عند العرب ، وهو صنوان وغير صنوان ، فالصنوان هى الفروع ذات الأصل الواحد ، وغير الصنوان .

هذه الأنواع المختلفة كلها يسقى بماء واحد ، ومن القراء السبعة من قرأ بالتاء تسقى وكلها قراءات صحيحة صحت عن رسول الله ﷺ(١) ، ويسقى – يعنى ما ذكر – كله بماء واحد ، أو تسقى – أى هذه الأشياء أيضاً – بماء واحد

---

(١) علم القراءات هو علم يعرف منه اتفاق ناقلى كتاب الله تعالى واختلافهم فى أحوال النطق به من حيث السماع ، وثمرته العصمة من الخطأ فى نقل القرآن ومعرفة وجوه القراءة ، وهو مستمد من النقول الصحيحة المتواترة عن أئمة القراءة عن النبى ﷺ ، وهو علم كفائى ، وقد وضع العلماء شروطًا ثلاثة للقراءة الصحيحة هى أن تكون متواترة عن رسول الله ﷺ وأن توافق وجهًا من وجوه اللغة العربية وأن يحتملها الرسم العثمانى للمصحف ، وأشهر القرَّاء هم السبعة : نافع بن عبد الرحمن المدنى ، وعبد الله بن كثير المكى ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن عامر ، وعاصم بن أبى النّجود ،وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلى بن حمزة الكسائى ، ولكل واحد =

وإن اختلف مصدر هذا الماء ، هل هو من ماء الأمطار أو من مياه الأنهار ، أو من مياه الآبار ، أو من مياه العيون المتفجرة ، أو فى عصرنا مما حلّى من البحر أى ماء البحر المحلى ؟ وإن اختلف طريقة رى هذا الزرع أو هذا النخل أو هذا الكرم ، كطريقة الغمر ، أو طريقة الرشّ، أو طريقة التنقيط ، المهم أنه ماء واحد ، طبيعته واحدة ، وجوهره واحد ، مكون من الأكسجين والهيدروجين ، ومع أن هذا الماء واحد ، فإن هذه الأنواع يفضّل الله بعضها على بعض فى الأُكُل ، وفى الثمر والحب ، وفى الطعم هى مختلفة ، كما أنها مختلفة الأحجام والأشكال والألوان والطعوم والروائح وفى المذاق ، مع أن الأرض واحدة ، والتربة واحدة ، والماء واحد ، والشمس التى تتسلط عليها أضواؤها هى واحدة . فما الذى جعلها تختلف إذن ؟! طالما أن هناك وحدة فى التربة التى تغرس فيها إن كانت غرسا أو تبذر فيها إن كانت بذراً ، والماء الذى تسقى به واحد ، وكل ما يؤثر فى الزرع والغرس واحد كالهواء والضياء والحرارة . إن الله تعالى هو الذى يفضل بعضها على بعض فى الأكل ، سواء كانت القراءة « وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ » بالنون وبصيغة المتكلم أو كانت « وَيُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الأُكُلِ ،، عطفًا على قوله : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ وهو من العطف البعيد ولكن القراءة المشهورة هى بالنون : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ﴾ ، فهذا دليل على أن هـــناك صانعاً مختاراً ، على أن هناك فاعلاً حكيماً ، ليست الطبيعة الصماء هى التى تدبر هذه الأشياء ، فلا يمكن لها أن تصنع هذا ، وتخالف بين الأشياء ذات الطبيعة الواحدة والجوهر الواحد .

من الذى علّم البذرة المعينة للنبات المعيّن أن تمتص من الأملاح مقداراً

= من هؤلاء راويان ، أما قوله عز وجل : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ فقد قرأه ابن عامر وعاصم بالتذكير (بالياء) والباقون بالتأنيث (بالتاء) انظر الضباع (تقريب النفع فى القراءات السبع) ص ٣ ، ٤ ، ١٣٨ مع بعض التصرف والزيادة .

محدداً ، أو تأخذ من الماء مقداراً محدداً ، أو تأخذ من الحديد ولا تأخذ من الفسفور مثلاً ؟ .

كل نبتة وكل بذرة وكل (شتلة) تأخذ من الأرض ما يناسبها ، فمن الذى علمها هذا ؟ وكيف عرفت هذه النسب وهذه القوانين المحكمة ؟ قال تعالى : ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ [الحجر : ١٩] وهو موزون فعلاً محدد النسب ، فمن علّم الفسيلة المغروسة أن تأخذ من الأرض ما يناسبها بمقدار معلوم ونسبة محددة لا تزيد ولا تنقص ؟ هو الله الذى يفضل بعضها على بعض فى الأكُل .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ إن فى ذلك – فى هذا الذى ذكر – لآيات – علامات – دالة على قدرة الله تعالى وعلى حكمته ، وعلى أنه لم يخلق شيئًا عبثًا ، ولم يترك شيئًا سدًى ، وإنما ينظم كل شىء بحكمته : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨] وهذا دليل على ما ذكره من قبل : ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ ودليل على أنه لابد من حياة بعد هذه الحياة ، ولابد من بعث ، ولابد من حساب ، ولابد من جزاء ، والذى صنع هذا كله قادر على أن يعيد الناس كما خلقهم أول مرة : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] هذا من ناحية القدرة ، ومن ناحية الحكمة : الذى فعل هذا كله لا يمكن أن يترك هذا الكون ينهدم ، ثم يدع كل شىء دون أن يأخذ المظلوم حقه ، ودون أن يأخذ الظالم عقوبته ! نهب الناهب ، وقتل القاتل ، وطغى الطاغى ، وظلم الظالم ، وأفلت هؤلاء من يد العقوبة الأرضية ، فهل يفلتون من العقوبة السماوية ؟ هل يفلتون من العدالة الإلٰهية ؟ والذين عاشوا أعمارهم مضطّهدين ، يفعلون الخير ويُجْزَوْن السوء من الناس ، الذين نُكِّل بهم وشردوا وعذبوا لا لشىء إلا أن يقولوا : ربنا الله ، الذين سقطوا شهداء فى معركة الحق ومعركة الإيمان ، كيف ينالون جزاءهم إن لم تكن هناك حياة آخرة ؟ فهذا كله يدل على أن هذا الكون لا يمكن أن ينتهى بغير حياة يجزى الناس فيها بما عملوا ، إن هذا مما يجب أن يعقله الناس : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

قال العلماء : إن الله تعالى ذكر فى ختام هذه الآية : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وفى الآية السابقة : ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ لأن أدنى نظر دون تفكر – يحتاج إلى إعمال الذهن وترتيب المقدمات للوصول إلى النتائج – يوصل إلى إدراك المراد ، كأن الأمر هنا أوضح من أن يحتاج إلى إعمال فكر ، فالعقل الفطرى البسيط بنظرة منه يعرف هذا ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

والقرآن – كما ذكرنا من قبل – يهتم بهذا الجانب العقلى ، أن يعمل الإنسان عقله ، وقد نزل القرآن لقوم يعقلون ، ولم ينزل لأولئك الذين أغلقوا عقولهم ، أو عطلوا مداركهم ، أو جمّدوا ما وهب الله لهم من أدوات المعرفة والفهم ، فخرّبوا الأجهزة التى منحهم الله إياها ، وإنما نزل القرآن لقوم يعقلون فيستفيدون من الآيات الكونية ، ومن الآيات التنزيلية ، من الآيات المشهودة ، ومن الآيات المقروءة ، وقد جاءت كلمة (تعقلون) فى أربع وعشرين آية من القرآن الكريم بالخطاب هكذا ، وجاءت (يعقلون) فى اثنتين وعشرين آية ، وهذا كله نداء للعقل أن يتحرك .

فإذا نظرنا إلى هذه الآيات الأربع ، وجدنا أنها اهتمت بأربعة أشياء تعتبر أسسًا للحياة الإسلامية :

أولها : الإيمان بالله تبارك وتعالى .

وثانيها : اليقين بلقاء الله تبارك وتعالى .

وثالثها : التفكر فى مخلوقات الله فى كونه .

ورابعها : التعقل لآيات الله سبحانه وتعالى .

فالآية الأولى ختمت بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى بهذا الحق الذى أنزله الله ، فدلنا على أن الإيمان أساس لابد منه ، وختمت الآية الثانية بقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ فاليقين بالآخرة وبالجزاء وبلقاء الله تعالى أساس آخر ، ثم ختمت الآية الثالثة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وختمت الآية الرابعة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، ونلاحظ أن

الآيتين الأوليين تتحدثان عن الإيمان واليقين ،وأن الآيتين الأخريين تتحدثان عن التفكر والعقل ، وبهذا تقوم الحياة الإسلامية على الإيمان بالله ، واليقين بلقائه ، وعلى التفكر والتعقل لآيات الله والنظر فى كونه ، وليس هناك انفصال بين الجانبين ، ولا صراع بين المجالين .

عرفت أديان أخرى الصراع بين الدين والعلم ، أو بين اليقين والفكر ، أو بين العقيدة والمعرفة ، أو كما عبَّر بعضهم بين الشريعة والحكمة ، ولكن الإسلام لم يعرف هذا النزاع ولا هذا الصراع ؛ لأن الإسلام – كما قلنا دائماً – يحترم العقل ويعتبره دليلاً على وجود الله تبارك وتعالى ، وعلى وحدانيته وعلى كمال صفاته ، كما يعتبره دليلاً على الآخرة ، وهو دليل أيضاً على ثبوت النبوة ، لهذا فليس عندنا نحن المسلمين ما عند غيرنا من هذه المعركة التاريخية بين النقل والعقل ، أو بين الوحى والعقل ، أو بين الدين والعلم .

وهذا ما تدل عليه هذه الآيات الكريمة ، والآية الأخيرة آية الزرع والنخيل والأعناب آية واضحة ، ولكن الناس غفلوا عنها مع أن بعض الشعراء مثل أبى نواس على ما اشتهر عنه من مجون له أبيات لطيفة يقول فيها :

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليكُ
عيون من لجين شاخصاتٌ ... بأبصارٍ هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهداتٌ ... بأن الله ليس له شريك

وبعض الراجزين له كلمة فى المعنى الذى ذكرته الآية يقول :

والأرض فيها عبرة للمعتبرْ ... تخبر عن صنع مليك مقتدر
تسقى بماء واحد أشجارها ... وبقعة واحدة قرارها
والشمس والهواء ليس يختلف ... وأكلها مختلف لا يأتلف
لو أن ذا من عمل الطبائع ... أو أنه صنعة غير صانع
لم يختلف وكان شيئًا واحدا ... هل يشبه الأولاد إلا الوالدا ؟

الشمس والهواء يا معاند والماء والتراب شيء واحد

فما الذى أوجد ذا التفاضلا إلا حكيم لم يرده باطلا

هذا هو الله سحانه وتعالى ولذلك بعد أن ذكر القرآن هذه الآيات عجّب الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ – وهو تعجيب لغيره أيضًا من باب أولى – من هؤلاء الذين يجحدون البعث والمعاد مع وضوح هذه الآيات البينات قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ .

ذكر القرآن هنا – مع وضوح الآيات التى تدل على وحدانية الله وعلى وجوده وبالغ حكمته وعظيم قدرته ، وعلى أنه لا يمكن أن يترك هذا الكون عبثًا-ثلاثة مواقف ما كان ينبغى أن يقفها هؤلاء الكافرون بعد وضوح هذه الآيات .

الموقف الأول : إنكار البعث والمعاد ، **الموقف الثانى** : الاستعجال بالسيئة قبل الحسنة ، **الموقف الثالث** : اقتراح آيات غير القرآن : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ .

فأما الأول : إنكار البعث : فهو استبعاد أن ينشىء الله الناس مرة أخرى بعد أن هلكوا ، بعد أن رمّت العظام وبليت كما قال أحدهم لرسول الله ﷺ – وجاء له بعظم قد رمّ وبلى – أيحيى هذا الله بعد أن رمّ وبلى ؟ قال ﷺ نعم ويحييك ويبعثك ويدخلك النار (١) ، وجاء فى هذا قول الله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ

---

(١) أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقى عن أبى مالك قال : جاء أبى بن خلف بعظم نخرة فجعل يفته بين يدى النبى ﷺ قال : من يحيى العظام وهى رميم ؟ فأنزل الله : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ وأخرج مثله عبد الرزاق ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضى الله عنه ، وأخرج ابن أبى حاتم مثله عن السدى رضى الله عنه وكذلك أخرج عن عكرمة مثله ، وأخرج أيضًا ابن مردويه مثله عن ابن عباس رضى الله عنهما وفيه أن النبى ﷺ قال يبعث الله هذا ويميتك ثم يدخلك جهنم ، قال ابن عطية فى المحرر الوجيز جـ ١٢ ص ٣٢٨ « واسم أبىّ هو الذى خلط على الرواة لأن الصحيح هو ما رواه ابن وهب عن مالك وقاله ابن إسحاق وغيره : إن أبى بن خلف أخا أمية بن خلف هو الذى جاء بالعظم الرميم بمكة ففته فى وجه النبى ﷺ » أ . هـ .

لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٨ ، ٧٩] ، والقرآن يحكى عن هؤلاء هذا الإنكار وهذا الاستبعاد ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾ أبعد أن نموت ونبلى وتصبح أجسامنا ترابا ﴿ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ؟! وهذا الاستفهام إنكارى ، ينكرون فيه هذا الأمر ، أمعقول أن نخلق خلقاً جديداً ؟ نبعث ونكون فى خلق جديد يخلقنا الله ويعيدنا بعد أن أصبحنا تراباً ؟ ، وقد ذكر القرآن هذا الإنكـــار فى غير ما موضع ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [سورة ق : ٣] ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سبأ : ٧] ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الصافات : ١٦] وغير ذلك مما حكاه القرآن عن استبعادهم أن يعيدهم الله بعد أن بلوا وأصبحوا تراباً .

وقد خاض القرآن الكريم معارك ممتدة حامية الوطيس ، خلال العهد المكى كله حفلت بها سور القرآن المكّى ، ولم تخل منها السور المدنية ، ومعركة التوحيد هى أُمّ المعارك الفكرية والعقدية الكبرى التى خاضها القرآن الكريم ، ومنها معركة الآخرة والجزاء ، ومعركة النبوة والرسالة ، حفل القرآن الكريم بتلك المعارك ليخرج أولئك الذين عاشوا فى ظلمات الجهالة والتقليد والعبودية للوثنية والجاهلية ، ليخرجهم : ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١] .

معركة البعث والجزاء فى القرآن :

كانت معركة البعث والجزاء والخلود فى الآخرة إحدى هذه المعارك الأساسية ومن هنا ذكر القرآن الكريم – يخاطب النبى ﷺ – ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [الرعد : ٥] هل هذا الخطاب للنبى ﷺ ؟ أو لكل من يصلح له الخطاب ، فهو خطاب عام ، الأصل أنه للنبى ﷺ لأن السورة من أولها ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وبعد ذلك : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ [الرعد : ٥] وبعده : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ ، مَنْ رَّبِّهِ إِنَّـــمَا أَنـــتَ مُنذِرٌ

وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] فالخطاب مع النبى ﷺ مستمر ، ولكنه يصلح أيضًا لكل من يتأتى له الخطاب كما يقال : « إياك أعنى واسمعى يا جارة » ، إن تعجب يا محمد ، إن يكن منك عجب من شىء فالعجب كل العجب ، عجب أى عجب ، وعجب غريب حقًّا هو قول هؤلاء الناس المطموسين المقلدين ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وقد تكرر هذا الاستفهام الإنكارى مرتين فى هذه الفقرة دلالة على تأكيد الاستنكار من هؤلاء .

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ القرآن هنا لم يرد عليهم ؛ لأنه اكتفى بما ذكر من الآيات ، ففيها غنية عن الرد ، ولذلك اكتفى بأن دمغهم بالكفر والجحود ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم ﴾ والكفر فى لغة العرب معناه الستر والتغطية ، فكأن هؤلاء غطوا الحقائق وغلفوها بغلاف ، بحيث لا ينظرون إليها ولا يلتفتون إليها : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم ﴾ فأعماهم الكفر عن أن يروا قدرة الله تبارك وتعالى ، وقد رأوا من آياته ما رأوا ، ومن أجل ذلك يسمى الزارع كافرًا حيث يكفر البذرة ويغطيها فى التراب ، ولهذا قال بعض المفسرين فى قوله تعالى :﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾[الحديد : ٢٠] أى أعجب الزُّراع ، ويسمى الليل كافرًا لأنه يستر ما فيه بالظلمة ، وفى بعض اللغات الأجنبية (كفر) بمعنى غطى أو هو نوع من التغطية ، ولعلها أخذت من العربية ، فالكافر هو الذى يستر الحقيقة بجهله أو بعناده أو بتقليده الأعمى أو بكبريائه وحسده ، إن الحقيقة واضحة ولكنه يسترها ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] ﴿ حَسَدًا مِنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

ويبرز هنا سؤال ، فقد كفر هؤلاء بالآخرة والبعث وإعادة الأموات ، فلماذا اعتبر القرآن هذا كفرًا بالله تبارك وتعالى ؟ ذلك ، لأن من كفر بالبعث بعد الموت فهو فى الحقيقة قد كفر بالله تبارك وتعالى ، فالقضية مبنية على استبعاد أن يحدث هذا فكأن هذا إنكار لقدرة الله تعالى على الإعادة والإحياء ، والقرآن يقول : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سورة ق : ١٥] إن الله لم يعى بالخلق الأول ولم يعى بما هو أكبر من خلقكم ، فقد خلق

السموات والأرض : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] ﴿ أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى ، وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس : ٨١] ، ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحِيِىَ الْمَوْتَى ، بَلَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣] .

لذلك كان الكفر بالبعث وبالمعاد وبالساعة كفراً بالله تبارك وتعالى ، وقد ذكر القرآن لنا فى سورة الكهف فى قصة صاحب الجنتين : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِه قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِه أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّددتُّ إِلَى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ [الكهف : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧] لماذا دمغه بالكفر بالله تبارك وتعالى مع أنه كفر بالساعة فقط حين قال : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ لأن من كفر بالساعة وكفر بالمعاد وكفر بالبعث ، فقد كفر بالله تبارك وتعالى ، كفر بقدرة لله على الإعادة والبعث والإحياء ، وكفر من ناحية أخرى بعدل الله تبارك وتعالى وحكمته ، لأنه نسب إلى الله تعالى أنه خلق هذا الكون عبثا ، خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ، فمعنى أن لا معاد ولا بعث ولا جزاء : أن ينهدم هذا السرادق الكبير الذى أقامه الله تبارك وتعالى ، وقد ظُلم فيه من ظلم ، واضُطهد فيه من اضطهد ، وقُتل من قتل ، واستُشهد من استشهد ، وفعل الطغاة والمستكبرون الأفاعيل ، وارتكبوا الموبقات ، وعبّوا من الشهوات عبًّا ، وسفكوا دماء الناس سفكًا ، بنوا قصورهم من جماجم البشر ، وزخرفوها بدماء الخلق ، دون أن يُجزَى هؤلاء ، أفلتوا من عدالة الأرض ، وأفلتوا من عدالة السماء ، لم يعاقبوا فى الدنيا ، لأن من السهل فى الدنيا أن يفلت الإنسان من العقوبات الأرضية ومن العقوبات القانونية . وقد يكون هذا الإنسان نفسه هو واضع القانون وهو ظالم ، أو حارس القانون ، ولكن « حاميها حراميها » كما يقولون :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب ؟!

هؤلاء الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد ، وارتكبوا الشرور، وقبائح الأمور ، وانتهت الدنيا ولم يأخذوا عقابهم ، وأولئك الذين عاشوا فى الدنيا للخير ولكنهم لم يكافأوا،تنكر لهم الناس أو اضطهدوهم أو قتلوا ظلمًا . كالمؤمنين الذين ذكرهم الله فى سورة البروج ، ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أن يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨] وغيرهم من الأنبياء والشهداء والصديقين والصالحين ، الذين حفل بهم تاريخ الدعوة إلى الله عز وجل ، إذا انهدم هذا الكون ولم يجز المحسن بإحسانه ، ولا المسىء بإساءته ، فمعنى ذلك أنه ليس هناك عدالة وليس هناك حكمة ، كأنما اتهمنا صانع هذا الكون ومدبره بأنه لم يقمه على الحق والحكمة، وهذا ما نفاه الله تبارك وتعالى ونزّه ذاته المقدسة عنه ، يقول الله عز وجل : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ [المؤمنون :١١٥ ، ١١٦] ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الدخان : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠]، ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١ ، ٢٢] ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كالْفُجَّارِ ﴾ [سورة ص : ٢٧ ، ٢٨] لا يستويان فى عدل الله عز وجل ، ساء ما يحكمون ، هذا هو الباطل الذى يتنزه الله تبارك وتعالى عنه ، ولذلك كان الذين ينكرون البعث والجزاء فى دار غير هذه الدار ، توفىَّ فيها كل نفس ما كسبت ، وتخلد فيما عملت ، إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] كان إنكار هذا بمثابة اتهام للعدالة الإلهية وللحكمة الإلهية ، ومن هنا كان هذا كفراً بالله تبارك وتعالى ، كفراً بالقدرة الإلهية ، وكفراً بالحكمة الإلهية ،

وبالعدالة الاجتماعية،ولا عجب أن يقول القرآن :﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم ﴾ جحدوا قـدرته ، أو عـدله وحكمته عز وجل ، ولم يقوموا بحقه .

والكفر أحيانا يقابل الشكر ، وأحيانا يقابل الإيمان ، فإذا كان كفراً بالمنعم نفسه قابله الإيمـان كمـا فى قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ [النساء : ١٣٧] ، وإذا كان كفراً بالنعمة قابله الشكر كما فى قوله تعالى : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٤٠] وقوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] فالذين كفروا بربهم ، كفروا بالنعمة وكفروا بالمنعم .

﴿ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِم ﴾ هؤلاء الذين أنكروا البعث وعجبوا مما لا يجوز التعجب منه – إذ أصل التعجب أنه حالة تعرض للإنسان إذا رأى ما لا يعهد مثله ولا يعلم سببه ، أما الشيء الذى يعهد مثله أو يعرف سببه ، فلا ينبغى أن يتعجب منه ، ولذلك يقول الناس : إذا عرف السبب بطل العجب .

فإحياء الله تعالى الموتى أمـر يعهـد مثـله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّـذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس : ٧٩] وهناك إحياء الأرض بعد موتها : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت : ٣٩] فهـذا أمر يعهد مثله ، ويعرف سببه ، فالله سبحانه وتعالى هو فاعل هذا ، هو صاحـب هذا الكون ومنشئه ، هو الذى لا يعجز قدرته شيء ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] فما كان ينبغى العجب إطلاقاً .

معنى الأغلال فى أعناق الكفار :

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِم ﴾ هذه الأغلال أى السلاسل فى الأعناق : أهى أغلال فى الدنيا ؟ أم هى أغلال فى الآخرة ؟ أم

هى الأمران معًا؟ وهذا معقول فأغلال الدنيا أغلال معنوية كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِىَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِن خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ﴾[يس : ٨ ، ٩] هذه القيود والأغلال الفكرية ، أغلال التقليد الأعمى التى تجعل بعض الناس لا ينظرون إلى الحقائق وهى واضحة ، ولا إلى الآيات وهى بينة ، ولا إلى الدلائل وهى أظهر ما تكون ، إنما يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] ، ويقولون : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [البقرة : ١٧٠] وكما يقول الشاعر :

أين الرشاد وقد خُلّفتُ فى نفر ... لهم عن الرشد أغلال وأقياد ؟

هذه هى الأغلال التى تجعلهم يعيشون فى داخل الضلال مغلولين مقيدين لاخلاص لهم ، وهذه الأغلال الدنيوية تؤدى فى الآخرة إلى أغلال أخرى حيث تغل أعناقهم ويسحبون إلى النار ، والعياذ بالله ﴿ إِذْ الأَغْلاَلُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر : ٧١ ، ٧٢] ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلاَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيرًا ﴾ [الإنسان : ٤] فأغلال الدنيا هى التى تؤدى بهم إلى أغلال الآخرة .

الخلود فى النار :

﴿ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ هم أصحاب النار الملازمون لها ، وقد أصبحت صحبة بينهم وبينها ، وهم الذين ألقوا بأنفسهم فى هذه النار ، فما الذى أرداهم فى النار ، وما الذى سلكهم فى سقر ؟ إنه الكفر بربهم ، بآيات ربهم برغم ما وضع الله لهم من دلائل ، وما وضح لهم من آيات ، وأصحاب النار تعبير قرآنى تكرر كثيرًا ، وفى مقابلها أصحاب الجنة [١] ، وإنما

---

(١) تعبير « أصحاب النار » ورد عشرين مرة فى القرآن كله ، وورد تعبير « أصحاب الجحيم » ست مرات وتعبير « أصحاب السعير » ثلاث مرات ، كما ورد تعبير « أصحاب الجنة » أربع عشرة مرة ، وورد تعبير « أصحاب الشمال » و « أصحاب اليمين » و « أصحاب الميمنة » و « أصحاب المشأمة » غير مرة وورد غير ذلك ، انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة ص ٦٥٨ ، ٦٥٩ جـ ١ .

سَمُّوا أصحاب النار ؛ لأنهم مصاحبون لها ، طالت ملازمتهم ومعاشرتهم لها ، وهم المعذبون فيها الذين يلازمونها وتلازمهم ، وقد جاء التعبير بأصحاب النار مرة واحدة عن الذين يتولون خزانتها ، ويقومون على التعذيب فيها ، وذلك قول الله تعالى فى سورة المدثر : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [المدثر : ٣١] ، أما فى باقى المواضع فأصحاب النار هم الذين دخلوها واستحقوا العذاب فيها ، فهم أصحابها وهى صاحبتهم ، وبئست الصحبة ! ٠

﴿ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ الخلود فى اللغة هو المكث الطويل ، وخلود كل شىء بحسبه ، فخلود الكفار فى النار خلود بلا موت كما صحّ فى الحديث « يا أهل النار خلود فلا موت ، ويا أهل الجنة خلود فلا موت » (١) إلى ماشاء الله ، ولو كان الخلود مائة سنة أو مليون سنة أو تريليون سنة ، ولكنه خلود الأبد ﴿ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ حكم الله على هؤلاء الذين أنكروا البعث واستبعدوا أن يحيى الله الناس بعد موتهم فكفروا بربهم ، كفروا بقدرته وبشمول قدرته ، وكفروا ببالغ حكمته ، وكفروا بكمال عدله وملكه وحمده ٠

* * *

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير من حديث أبى سعيد الخدرى باب قوله وأنذرهم يوم الحسرة سورة مريم ، وهو حديث طويل جاء فى لفظه « يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ٠٠ » كما أخرج قريباً من لفظه عن ابن عمر فى كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار ، وأخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، والترمذى فى الجنة ، وابن ماجه فى الزهد ، والدارمى فى الرقاق ، وأحمد فى مسنده ٠

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٦ ، ٧] .

المراد بالسيئة والحسنة :

تكلمنا فيما مضى عن موقف الكافرين الأول الذى سجله القرآن الكريم من إنكارهم للبعث والمعاد ، وبين أيدينا الآن موقفهم الثانى الذى سجله القرآن الكريم من الاستعجال بالسيئة قبل الحسنة ، تلك المقولة من مقولاتهم ، من نتائج الكفر الذى ينضح بهذه الرذائل والجرائم ، رذيلة تلو رذيلة ، وجريمة بعد جريمة ، أنهم يستعجلون رسول الله ﷺ بالسيئة قبل الحسنة ، والمراد بالسيئة هنا العقوبة تنزل عليهم من السماء ، فكلمة السيئة والحسنة تردان فى القرآن بمعنيين : السيئة بمعنى المعصية ، والحسنة بمعنى الطاعة كما فى قوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] وكما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] ، وتردان بمعنيين آخرين ، الحسنة : النعمة تنزل بالإنسان تسره والسيئة النقمة والمصيبة والعقوبة تنزل بالإنسان فتسوءه مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذه مِنْ عِندِ اللهِ ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾ [النساء : ٧٨] فالحسنة هنا بمعنى النعمة من عند الله والسيئة من شؤم محمد ، ويقول الله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] وهذا كثير فى القرآن : ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٨] أى بالنعم والمصائب ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا .. ﴾ [الأعراف : ٩٥] .

فالمراد هنا : ﴿ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ ﴾ المصيبة والنعمة ، وحينما يستعجلون رسول الله ﷺ يستعجلونه العقوبة تنزل بهم ، وهذا للأسف من جناية الجاهلية على عقل الإنسان ، من جناية الوثنية أن يستعجل الإنسان ما يضره : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ